

البنية النفسية الاجتماعية للدولة التسلطية العراقية : مقارنة إنسانية نقدية

The Social psychosocial structure of the Iraqi authoritarian state: a critical humanistic approach

لؤي خزعل جبر

علم النفس الاجتماعي السياسي

الجمعية العراقية لعلم النفس السياسي

Luai K. Ghabr, Prof. Dr., Political – Social Psychology, IAPP

مُجَمَّل

عملت الدراسة الحالية على تقديم قراءة جديدة لتسلطية الدولة العراقية بالكشف عن البنية النفسية الاجتماعية العميقة، عبر مقارنة إنسانية نقدية، للتحقق من فرضية رئيسة تنصُّ على أنَّ البنية التسلطية للدولة العراقية بنية نفسية اجتماعية بالأساس، تتفاعل – بطريقة جدلية ديناميّة – مع البنيات الاقتصادية والسياسية، إذ الظروف الاجتماعية والاقتصادية والسياسية للمجتمع العراقي تتفاعل – تأثيراً وتأثراً – مع تكوين الشخصية التسلطية والصراعات الهوياتية والذاكرات المتعددة والثقافات السياسية، ضمن ديناميات الخوف الجمعي، فالملكيّة – الجمهورية، الاستبدادية، التوتاليتارية، المحاصصة، ليست إلا تصنيفات ظاهرية تُخفي الجوهر المُشترك للبنية الاغترابية – المسكونة بالخوف والعزلة – للدولة التسلطية العراقية.

تتبعت الدراسة تحولات الخوف ضمن ثلاثة أنماط متصاعدة: الوظيفي والغائي والشغفي، الاقتصادي والسياسي والشامل، كل تحول حدث بتفاعل بين المجتمع والدولة، بوساطة الحكومة المنبثقة من التوجّهات الاستغلالية، لتهيمن في سياق من التوجّهات التلقيفية والشخصية التسلطية، وتحتمي وتشغل بصدامات الهويات الاجتماعية، وبناء سرديات تقاطعية، ليمثل العراق – بتاريخ دولته الحديثة – المثال الدقيق لتشكيلات وتحولات الدولة التسلطية، والأساس النفسي الاجتماعي لبنية تلك الدولة: بنية الخوف، السياقي والطريقي، بدرجة يمكن عدّه تاريخ الخوف وتحولاته، كما يقدم إضافة نظرية مهمة تتمثل بديناميات الخوف الذي يأكل ذاته، فالخوف، بتراكماته وانزياحاته، وإغفال تجلياته ومركزياته، يقود إلى فناء الدولة، كمضمون اجتماعي، وإطار سياسي، وهو ما لم يكن يُدرِكُه قاداته نتيجة المخاوف التسلطية. ولكن الوصول إلى ذلك تطلب عذابات اجتماعية هائلة، وتفتيت لبنية الدولة، كما كشف عن عمق اغتراب الذات السياسية العراقية.

الكلمات المفتاحية: الدولة التسلطية، البنية النفسية الاجتماعية للدولة، الإنسانية النقدية، التوجهات الطبيعية، الشخصية التسلطية، الهوية الاجتماعية، الذاكرة التاريخية، الثقافة السياسية، الخوف الجمعي، البنية الاغترابية للدولة.

مُشكلة البحث

في كتابه "دراسة في طبيعة المجتمع العراقي"، قال علي الوردي: "إنَّ الشعب العراقي منشقُّ على نفسه، وفيه من الصراع القبلي والطائفي والقومي أكثر مما في أي شعب عربي آخر... وليس هناك من طريقة لعلاج هذا الانشقاق أجدى من تطبيق النظام الديمقراطي فيه، حيث يُتاح لكل فئة أن تشارك في الحكم حسب نسبتها العددية"، وفي كتابه "العراق: تاريخ سياسي من الاستقلال إلى الاحتلال"، قال عضيد داويشة: "خلق الدول الجديدة في الشرق الأوسط في أعقاب الحرب العالمية الأولى عكس إعادة ترتيب المصالح الاستعمارية البريطانية والفرنسية في المنطقة، لذا فإن تلك الدول لم

تأسَّس بالضرورة بناءً على الحاجة الفعلية لسكانها الأصليين، بل لتحقيق المصالح السياسية والاقتصادية للدولة المستعمرة، ولذا كان على هذه الكيانات المصطنعة ليس فقط تولي مهام الحكم، وهي مهمة صعبة بطبيعتها، بل كذلك مهمة صهر الهويّات الأصليّة والمصالح الاجتماعيّة المختلفة، بل والمتصارعة في كثير من الأحيان ... الحقيقة التي تبرز من خلال دراسة السياسة والتاريخ العراقي هو أن المشروع العراقي يتكون أساساً من مشاريع ثلاثة وظيفيّة منفصلة ولكن مترابطة، كان كلٌّ منها هدفاً لأجندة معيّنة، لكنها تصبُّ في هدف واحد أكبر، ألا وهو الحفاظ على الدولة الوطنيّة العراقيّة. إنّ المهمة المُلقاة على النخب الحاكمة في العراق كانت بناء البنية المؤسّساتيّة الحاكمة، وبناء الهوية الوطنيّة، وتعزيز المؤسّسات الديمقراطيّة التي تضي الشرعية على الدولة وعلى النخبة الحاكمة وتعزز الترابط الوطني¹.

في هذين النصبين تكثيفٌ للمقاربة السياسيّة، والاجتماعيّة إلى حد ما، التي تسيدت دراسات الدولة العربيّة والعراقيّة، فالهويّات المتصارعة، والبنية الدولتيّة المفروضة، والمصالح السياسيّة والاقتصاديّة المتعارضة، والديمقراطيّة كمعضلة، شكّلت ركائز المقاربة التقليديّة، وحكمت مسارات التحليل ضمن هذه الأطر، وهي وإن كانت علميّة ومصيبة في جوانب عدّة في تفسير فشل الدولتيّة والديمقراطيّة، وتصاعد ورسوخ التسلطيّة، إلا أنّها قاصرة عن الفهم المستوعب لديناميّات التسلطيّة المجتمعيّة والدولتيّة، فتلك التسلطيّة بنية نفسيّة اجتماعيّة في العمق، وإغفال هذه الحقيقة يُنتج رؤية مبتسرة، ومُضلّلة وسطحيّة إلى حد ما. والدولة – أيّ دولة – لا يُمكن أن تُفهم إلا بمقاربة شاملة ديناميّة، تستوعب الأبعاد المتعددة المتفاعلة في تكوين – وديمومة – تلك الدولة. والعراق بلدٌ مُعقّد، بتاريخه وجماعياته وعلاقاته، لا يُمكن استيعابه بمقاربة أُحاديّة، ففي داخله تتصارع نزعات واتجاهات ومؤسّسات متنوعة: النظم الملكيّة والجمهوريّة، الاستبداديّة والواحدية والشموليّة والمُحاصّصيّة، والبنية الدينيّة والعشائريّة والقانونيّة، والأحزاب الدينيّة والشيوعيّة والقوميّة، الانقسامات الدولتيّة والمجتمعيّة، الريفيّة والحضريّة، المدنيّة والعسكريّة، النخبويّة والشعبيّة، والطبقات الغنيّة والفقيرة، والهويّات الوطنيّة والقوميّة والمذهبيّة والأمميّة، والذاكرات التعايشيّة والتصارعيّة، والثقافات العداليّة والاستغلاليّة والمُحافظة والقدريّة.

لذلك، تسعى الدراسة الحاليّة إلى تقديم قراءة جديدة لتسلطيّة الدولة العراقيّة بالكشف عن البنية النفسيّة الاجتماعيّة العميقة، عبر مقاربة إنسانيّة نقدية، في هذه المقاربة لا تكون النفسيّة الاجتماعيّة نفسيّة فردانيّة تقليديّة، ترى إنّ العوامل النفسيّة – المعرفيّة والانفعاليّة – هي الرئيسة الوحيدة، وإنما عوامل أصيلة تتفاعل بطريقة جدليّة ديناميّة مع عوامل أصيلة أخرى، اجتماعيّة واقتصاديّة وسياسيّة، ولا يُمكن فهم البعض دون الكل، وستوظف أربعة مفاهيم نفسيّة اجتماعيّة مفتاحيّة في سياق هذه المقاربة: الشخصيّة التسلطيّة والهويّة الاجتماعيّة والذاكرة التاريخيّة والثقافة السياسيّة. والفرضيّة الرئيسة للبحث: إنّ البنية التسلطيّة للدولة العراقيّة بنية نفسيّة اجتماعيّة بالأساس، تتفاعل – بطريقة جدليّة ديناميّة – مع البنات الاقتصاديّة والسياسيّة، إذ الظروف الاجتماعيّة والاقتصاديّة والسياسيّة للمجتمع العراقي تتفاعل – تأثيراً وتأثراً – مع تكوين الشخصيّة التسلطيّة والصراعات الهويّاتيّة والذاكرات المتعددة والثقافات السياسيّة، ضمن ديناميّات الخوف الجمعي، فالملكيّة – الجمهوريّة، الاستبداديّة، التوتاليتاريّة، المُحاصّصيّة، ليست إلا تصنيفات ظاهريّة تُخفي الجوهر المُشترك للبنية الاغترابيّة – المسكونة بالخوف والعزلة – للدولة التسلطيّة العراقيّة.

¹ علي الوردي، دراسة في طبيعة المجتمع العراقي (بغداد، مطبعة جامعة بغداد، ١٩٦٥)، وعضيد داويشة، العراق: تاريخ سياسي من الاستقلال إلى الاحتلال، ترجمة سامر طالب (بيروت: مركز الرافدين، ٢٠١٩).

مقدمات نظرية

الدولة / التسلطية / العراقية

الدولة State بنية سياسية تنظيمية، ولدت من تعاقدات اجتماعية، بهدف نظم المجتمع وضبطه، وتحديد تمايزاته السيادية، بسلطة القوة والقانون. وهناك مقاربات عدة لهذه البنية في العلوم الاجتماعية، من "الواقعية الفجة" إلى "المثالية الرمزية"^١. والدولة تختلف عن الحكومة Government. فالدولة تنظيم، بينما الحكومة جماعة بيروقراطية تنفيذية تسيطر على مؤسسات الدولة، والحكومة جزء من المجتمع Society. تلك الكتلة البشرية المتواجدة - بشكل أساسي - ضمن نطاق الحدود الجغرافية للدولة، وهذه التمايزات - عند التدقيق - ليست بالصلابة البادية، فالدولة بالنتيجة هي من المجتمع ونتاجه، إلا أنها - من خلال الحكومة - قد تدخل في صراعات معه، عندما تتحول من خلال ديناميات نبوية إلى قامة له و/أو منفصلة عنه، فتتحرك تلك البنية التنظيمية لصالح مجموعة منه، ولذلك فإن الحديث عن صراعات الدولة - المجتمع تعني صراعات نزعاته المتعارضة و/أو الجماعة الغالبة فيه مع مجموعة مهيمنة منه، حول موضوعات حقيقية أو متخيلة، تُكرس في بنيته السياسية التنظيمية وسياقاته الفعلية ما لا يفيد تعاقداته الأصلية. وهناك توصيفات وتصنيفات عدة للدولة، متداخلة ومتفاعلة ومتشابكة، إلا أنه - بشكل عام - هناك فئتين كبيرتين، بناءً على معيار النخبوية - الشعبية، وهما: التسلطية Authoritarianism والديمقراطية Democracy. الثانية تنبثق من اختيار الشعب ومشاركته ومراقبته وتقييده الدستورية^٢، بخلاف الثانية، وتعبير آخر، مدى تابعية المجتمع وصانعيته للسلطة، ولعلمها طرقي متصل، أكثر من كونها بنائين منفصلين، كما أن لكل منهما فئاته الفرعية، التي تمتد على هذا المتصل.

الدولة التسلطية - مركز اهتمام الدراسة - هي الدولة ذات التعددية السياسية المحدودة، والشرعية السياسية الانفعالية، وقمع النشاطات المعارضة، والسلطة التنفيذية غير المحدودة. وللتسلطية - كذلك - تصنيفات عدة، متشابكة، فهناك التسلطية التقليدية مقابل التسلطية البيروقراطية العسكرية، التقليدية Traditional هي السلطة المحافظة على الهيمنة من خلال مغريات الشرعية التقليدية، والروابط الرعوية، والممارسات القمعية، والبيروقراطية العسكرية Bureaucratic - Military هي سلطة قائمة على تحالف العسكريين والتكنوقراطيين، تتصرف - بشكل مبرمج أكثر من كونه إيديولوجي - ضمن حدود العقلية البيروقراطية، كما هناك الملكية Monarchy، سلطة فرد (ملك) يتأسس الدولة طيلة حياته، أو حتى تنازله، وقوته قد تكون كاملة (ملكية مطلقة Absolute)، وقد تكون - وهذه تقترب من الديمقراطية - مقيدة (ملكية دستورية Constitutional) أو رمزية (جمهورية متوجة Crowned Republic)، والثيوقراطية Theocracy، سلطة جماعة تحكم باسم السلطة الألوهية الحاكمة السامية، ويتخلل ذلك الأوتوقراطية

^١ للتوسع في مفهوم الدولة، وإشكالياته وجدلياته، يُنظر: روبرت ماكيفر، تكوين الدولة، ترجمة حسن صعب (بيروت، دار العلم للملايين، ١٩٨٤)، ونيكولاس بولانتزاس، نظرية الدولة، ترجمة ميشيل كيلو (بيروت، التنوير، ٢٠١٠)، وعبد الله العروي، مفهوم الدولة (بيروت، المركز الثقافي العربي، ٢٠١١)، وبيار بورديو، عن الدولة، ترجمة نصير مروة (بيروت، المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، ٢٠١٦)، وفيليب برو، علم الاجتماع السياسي، ترجمة محمد عرب صاصيلا (بيروت، المؤسسة الجامعية، ١٩٩٨)، ص ٧٧-١٤٠.

^٢ للتوسع في مفهوم الديمقراطية، ومعايير وأنماط ومشكلات النظم الديمقراطية، يُنظر: روبرت دال، عن الديمقراطية، ترجمة أحمد أمين الجمل (القاهرة، الجمعية المصرية لنشر المعرفة والثقافة العالمية، ٢٠٠٠)، وتشارلز تيلي، الديمقراطية، ترجمة محمد فاضل طباح (بيروت، المنظمة العربية للترجمة، ٢٠١٠)، وجون درايزك وباتريك دنلفي، نظريات الدولة الديمقراطية، ترجمة هاشم أحمد محمد (القاهرة، المركز القومي للترجمة، ٢٠١٣)، وهانز هيرمان هوبا، الديمقراطية: الإله الذي فشل، ترجمة إيمان معروف (الكويت، منشورات تكوين، ٢٠١٩).

Autocracy، امتلاك شخص أو حزب للسلطة المطلقة الفائقة، لا تستند قراراته لمقيدات خارجية ولا لآليات منتظمة من السيطرة الشعبية، والأوليغارشيّة Oligarchy، سلطة تتصف بتمركز القوة عند عدد قليل من الناس الذين يمتلكون السيطرة الاقتصادية أو الاجتماعية أو السياسية أو الدينية أو العسكرية، وفي الغالب أُسرتستمد التأثير من جيل سابق، وإن كان ليس بالضرورة، وفي أقصى طرف التسلطيّة تكمن الشموليّة Totalitarianism، سلطة تسلطية متطرفة تتصف بالعبادة الحادة للقائد، والهيمنة الأيديولوجيّة، والمراقبة الكاملة، والمنظومة البوليسية والاعتقالية، وما بعد الشمولية Post-Totalitarian، سلطة تحكم بالمؤسسات الشمولية، مع تناقص في العقيدة الأيديولوجيّة، والهيمنة القمعيّة، والشخصنة القيادية، والتعبئة الجماهيرية، وبالقرب من وسط المتصل – باتجاه الديمقراطية – تأتي الديمقراطية الإثنية Ethnic Democracy، سلطة تتيح لجماعات إثنية أو عرقية معيّنة التمتع بالحقوق الديمقراطية، بينما تمنع تلك الحريات – بالكامل أو بشكل واسع – عن جماعات أخرى، وأقرب من ذلك التسلطيّة التنافسيّة Competitive، سلطة تحكم بالمؤسسات الديمقراطية الشكلية، لكن انتهاك المسيطرين للدولة يوظف تلك الإمكانيات لتأمين بقائهم، وإزاحة خصومهم، فهي تختلف عن التسلطية الكاملة بوجود الانتخابات المنتظمة، وإمكانية المعارضة بلا خوف عالٍ، وفي الوقت ذاته تفتقر إلى واحدة أو أكثر من الخصائص الثلاث للديمقراطيات: الانتخابات الحرة (الانتخابات غير الملوثة بالتزيف والتخويف) وحماية الحريات المدنية (حرية التعبير والصحافة وتكوين الجمعيات)، والإمكانيات التنافسية (إمكانية الوصول إلى القدرات الإعلامية والاقتصادية والقانونية).⁴

في العالم العربي يتخذ مفهوم الدولة إشكالية مضاعفة، إذ تُعدُّ بنية حديثة مستوردة، مفروضةً بشكلٍ استعماري في سياقٍ تراثي قبلي سُلطاني، تراثٌ تسلطي، ولذلك وصفت الدولة العربيّة بـ "دولة تسلطيّة، كارهة للديمقراطية".⁵ وفي العراق، تمتدُّ تلك الإشكاليّة بوصفهِ أحدُ أركان ذلك العالم، وقد تشكّلت دولته على امتداد قرن، ضمن فئتين: ملكيّة (١٩٥٨-١٩٢١) وجمهورية (١٩٥٨-٢٠٢١)، وقد اتسمت بالتسلطيّة في كلا الفئتين، فملكيتته وإن كانت مُقيّدة دستوريّة (ملكيّة وراثيّة، نيابيّة، بحسب دستور ١٩٢٥)، وجمهورية ديمقراطيّة (الشعبُ مصدر السلطات، بحسب دساتير ١٩٥٨ و١٩٦٨، و١٩٩١، و٢٠٠٥)، إلا إنَّ ذلك لم يكن في الواقع، فملكيتته – وإن كانت لا تُقايِس بدرجة تسلطيّة جمهورياته – تراوحت بين المطلقة والمُقيّدة، وفي الشطر الأكبر تغلّبت الأولى، حيث هامشيّة البرلمان، وغياب التعددية، وقمع المعارضين، وهيمنة البيروقراطية العسكريّة، والتحالف مع – أو على الأقل السكوت عن – المشيخة الاقطاعيّة، الناتجة عن "تجدُّر

⁴ See: Richard Shorten, *Modernism and Totalitarianism: Rethinking the Intellectual Sources of Nazism and Stalinism, 1945 to the Present* (Palgrave Macmillan, 2012); Juan J. Linz, "An Authoritarian Regime: The Case of Spain," in Erik Allardt and Yrjö Littunen, eds., *Cleavages, Ideologies, and Party Systems: Contributions to Comparative Political Sociology* (Helsinki: Transactions of the Westermarck Society), pp. 291-342; Steven Levitsky and Lucan Way, *Elections Without Democracy: The Rise of Competitive Authoritarianism*, *Journal of Democracy*, V.13, (2002), pp.51-65.

⁵ عن الدولة المستوردة، يُنظر: برتران بادي، الدولة المستوردة: تغريب النظام السياسي، ترجمة لطيف فرج (القاهرة، مدارات، ٢٠١٧)، ولتفاصيل أكثر عن تسلطيّة الدولة في العالم العربي، يُنظر: خلدون حسن النقيب، الدولة التسلطية في المشرق العربي المعاصر: دراسة بنائية مقارنة (بيروت، مركز دراسات الوحدة العربية، ١٩٩٦)، ونزيه الأيوبي، تضخيم الدولة العربية: السياسة والمجتمع في الشرق الأوسط، ترجمة أمجد حسين (بيروت، المنظمة العربية للترجمة، ٢٠١٠)، وكنعان مكية، القسوة والصمت: الحرب والطغيان والانتفاضة في العالم العربي (منشورات الجمل، ٢٠٠٥)، وحسنين توفيق ابراهيم، ظاهرة العنف السياسي في النظم العربية (بيروت، مركز دراسات الوحدة العربية، ١٩٩٩).

الثقافة التسلطية في شخصيات نُحْيِه^٦. أما جمهورياتِه، فابتدأت بالتسلطية البيروقراطية العسكرية (١٩٥٨-١٩٧٩)، لتنتقل إلى الشمولية (١٩٧٩-٢٠٠٣)^٧، وتنتهي عند التسلطية التنافسية، التسلطية الجديدة^٨، والدولة الفاشلة^٩، واللاديمقراطية^{١٠} (٢٠٠٣ إلى الآن). ولذلك يكون نطاق الدراسة الدولة التسلطية العراقية (١٩٢١-٢٠٢١).

^٦ لتدقيق مدى انطباق معايير التسلطية على الملكة العراقية، يُنظر: داويشة، مصدر سابق، ص ١٦٥-١٨٩. علماً أن داويشة أحد أهم القائلين بتواجد السياقات الديمقراطية في الملكة، مُقايمة بأخرين، إلا أنه مع ذلك يكشف بوضوح عن حضور البنية التسلطية بقوة، يقول داويشة: "لم ينشأ الحكم في العراق من خلال التفاعل بين عدة مستويات من المؤسسات، بل من خلال الهيمنة السياسية لطبقة ضيقة، تحكمها مفاهيم صارمة وحصرية من المنفعة والكسب الشخصي، وداخل هذا المفهوم الضيق كانت الخلافات التافهة تثار بكثرة" (ص ١٧٤).
^٧ يُنظر: داويشة، المصدر نفسه، ص ١٩١-٢٦٣. بخصوص البيروقراطية العسكرية، يقول داويشة: "النظام الجمهوري أنتج نزعة نحو المركزية والشخصنة فاقت بكثير كل ما كان موجوداً خلال الحقبة الملكية، ففي الحقبة الجمهورية أصبحت السياسة حكراً على مجموعة من القادة في قمة هرم سلطة بيروقراطية طبقية" (ص ٢٢٩)، وبخصوص الشمولية يقول: "لقد مثل المشهد السياسي والاجتماعي تحت حكم البعث، لاسيما في الحقبة الصدامية اختلافاً جذرياً عن الفترات السابقة في التاريخ العراقي، يمكن أن يقال إن النزعات القبلية في الحقبة الملكية، ونزعة الشخصنة السياسية في عهد قاسم، والقبلية السنية في عهد عارف كانت اللبنة الأساسية التي بنى عليها النظام السياسي والاجتماعي الوحشي، إلا أنه من التبسيط المخل أن نعد تلك النزعات هي التي ألهمت التطورات التي حصلت في النظام السياسي تحت صدام حسين. كان عراق صدام هو الصنعة الحصرية للرجل، لقد أسس وصاغ على مرور الزمن الدولة البوليسية التي كانت تعرف من خلال بربرية وهمجية أدواتها ومؤسساتها القمعية، لم يكن هذا القمع جسدياً فحسب، بل كان فكرياً أيضاً، فعملت الماكينة الثقافية للدولة على خلق بيئة تألمية، ليس لها من غرضي سوى تضخيم صورة الرئيس ... لم يحدث في تاريخ الدولة العراقية منذ تأسيس الملكية أن أخضعت قيم ومعتقدات وحقوق الناس إلى أوامر ونزوات وتشتت القائد البطل، فلقد كان العراق رهينة لإرادة ونزوات دكتاتور شمولي واحد، بصورة لم تشهد مثيلاً في التاريخ العراقي" (ص ٢٦٣).

^٨ See: Liam Anderson & Gareth Stansfield, *The Future of Iraq: Dictatorship, Democracy or Division?* Palgrave Macmillan, 2004, Toby Dodge, "State and Society in Iraq ten years after regime change: the rise of a new authoritarianism". *International Affairs*. V.89, (2013) 241–257, Marisa Sullivan. *Maliki's Authoritarian Regime*. The Institute for The Study of War: Middle East Security Report, 2013, Marina Ottaway & Danial Kaysi. *The State of Iraq*. The Carnegie Papers, 2017.

^٩ See: The Fund of Peace, *Failed States Index 2013*, The Fund of Peace, *Fragile States Index 2014*, The Fund of Peace, *Fragile States Index 2019*, All available Online: www.fragilestatesindex.org.

في هذه المؤشرات، قبع العراق (مُنذ ٢٠٠٥، سنة تأسيس المؤشر، إلى ٢٠١٩) ضمن حالة "الإنذار" Alert، في قائمة العشرين دولة الأكثر فشلاً في العالم، وتباين تواجده بين المرتبة (٢-١٣)، من مجموع (١٧٨) دولة، ففي (٢٠١٩) بلغت درجته في الفشل (٩٩,١%)، وكانت درجاته التفصيلية (من ١٠) في المؤشرات الاجتماعية والاقتصادية: الضغوط الديموغرافية (٨,٤)، واللاجئون والمهجرون (٩,١)، والتطور الاقتصادي (٦,٧)، والمظالم الاجتماعية (٨,٨) وهروب الإنسان واستنزاف العقل (٧,١)، والفقر والانحدار الاقتصادي (٥,٩)، وفي المؤشرات السياسية والعسكرية: شرعية الدولة (٨,٩)، والخدمات العامة (٨,٧)، وحقوق الإنسان وحكم القانون (٨,١)، والأجهزة الأمنية (٨,٧)، والنُخب المتحزبة (٩,٦)، والتدخل الخارجي (٩,١).

^{١٠} See: The Economist Intelligence Unit, *Democracy Index 2015: Democracy in an age of anxiety*, Available Online: www.eiu.com; Freedom House, *Freedom in The World 2016*, Available Online: www.freedomhouse.org.

صنف مؤشر الديمقراطية (٢٠١٥) العراق ضمن الدول الهجينة Hybrid المتأخمة للتسلطية، إذ جاء في الرتبة (١١٥) من مجموع (١٦٧)، بدرجة (٤,٨) من (١٠)، حيث كانت درجاته في العملية الانتخابية والتعددية (٤,٣٣)، ووظيفة الحكومة (٠,٧)، والمشاركة السياسية (٧,٢٢)، والثقافة السياسية (٤,٣٨)، والحريات المدنية (٤,٤١). وقد وضعه مؤشر الحريات (٢٠١٦) ضمن البلدان غير الحرة Not Free من حيث الحقوق السياسية والحريات المدنية، بدرجة (٢٧%)، وبترتيب (١٦١) من (١٩٥) دولة.

البنية النفسية الاجتماعية / المقاربة الإنسانية النقدية

المقاربات السابقة – والغالبية – للدولة خارجية، تتعامل مع الدولة كبنية مؤسسية Institutional Structure، سياسية اقتصادية، وإلى حد ما اجتماعية. وبذلك فهي تُغفل البنية النفسية الاجتماعية Socio-psychological Structure للدولة، والمقصود بذلك البنية (المعرفية والوجدانية) المُتشكلة في، والمُتفاعلة مع، والمرتبطة بـ (السياقات الاجتماعية)، تلك الكتلة من الإدراكات والتمثيلات والذاكرات والانفعالات والنزعات والتفضيلات والتوجهات الفاعلة في شخصية الإنسان، والضابطة لحركته في مجالات حياته الجمعية المتنوعة، المُنتجة لتلك البنية المؤسسية، وفي الوقت ذاته المُتأثرة بتلك البنية. إلا إنَّ ذلك لا يعني النظر إلى الدولة كبنية داخلية (نفسية اجتماعية) فحسب، في مقابل الرؤية الخارجية (السياسية الاقتصادية)، فالأحادية غير دقيقة في أي اتجاهٍ كانت، وإنما كفاعل للبنيتين، وهنا تأتي المقاربة الإنسانية النقدية لتدمج البنيتين في رؤية متكاملة.

الإنسانية النقدية Critical Humanism مقارنة نفسية اجتماعية منفتحة على المعارف الفلسفية والأنثروبولوجية والتاريخية والاقتصادية والسياسية والدينية، تمثلت في أعمال عالم النفس الاجتماعي الألماني إريك فروم Erich Fromm (1900-1980)، حيث حلل البنات العميقة للمجتمعات التسلطية والديمقراطية. انطلق في تشييد معماره المعرفي من تحليل الوضع الإنساني Human Situation، ككائنٍ فَرَد – عن الطبيعة – بإدراك الذات والعقل والتخيل، فوقع نتيجة العزلة في مُعضلة وجودية، تمثلت بتوقه وهروبه من الحرية في آنٍ واحد، وقد تركزت في حاجاته الأصلية: الاتصال Relatedness والتجاوز Transcendence والتجذُر Rootedness والهوية Identity وإطارٍ للتوجُّه والإخلاص Frame of Orientation and Devotion، ولكل حاجةٍ إكسزيسية: إنسانية واغترابية، فالصلة قد تتحقق بالحُب والتسلطية، والتجاوز بالإبداعية والتدميرية، والتجذُر بالتضامنية والتعصبية، والهوية بالفردية والقطعية، والتوجُّه بالعقلانية واللاعقلانية، وما يحدد ذلك هو التفاعل مع البنية الاجتماعية الاقتصادية Socioeconomic Structure، فالشخصية إكسزيسية جدلية، فردية واجتماعية، الشخصية الاجتماعية Social Character هي جوهر الخصائص النفسية الجماعية المتكونة نتيجة التجارب المُشتركة ضمن سياقاتٍ مُعينة، تُنتج معتقدات مختلفة، تدفع الفرد لعملٍ ما هو ضروري ومرغوب فيه في الظروف الخاصة بثقافته، مما يتيح للمجتمع القيام بوظيفته، وإدامة بنيته الاقتصادية الاجتماعية، وتبدل بتبدلاته، بطريقةٍ جدلية، فحاجات الإنسان المُتأصلة في طبيعته هي كذلك عوامل دينامية في العملية التاريخية، ترسيخية في بعض الظروف، وتفكيكية في أخرى. وهناك أنماطٌ خمسةٌ كبرى من التوجهات الناتجة عن ذلك التفاعل: (١) التقبلية Receptive، التلقي من الآخرين، ويغلب في المجتمعات الطبقيّة، و(٢) الاستغلالية Exploitative، الانتزاع من الآخرين، ويغلب في المجتمعات ذات النظم التسلطية، و(٣) الادخارية Hoarding، الاحتفاظ والابتعاد عن الآخرين، ويغلب في المجتمعات ذات الاهتمام بالأعمال الاقتصادية المنظمة، و(٤) التسويقية Marketing، ارتبطت بالوظيفة الاقتصادية للسوق في المجتمع الحديث، حيث القيمة التبادلية بدل القيمة الاستعمالية، خصيصته الدائمة مجرد قابلية تبديل المواقف، و(٥) المُنتجة Productive، القدرة على توظيف الطاقات وتحقيق الإمكانيات المُتأصلة، بالعقل والحُب^{١١}.

^{١١} يُنظر: إريك فروم، الخوف من الحرية، ترجمة مجاهد عبد المنعم مجاهد (بيروت، المؤسسة العربية للدراسات، ١٩٧٢)، ص ٢٢١-٢٣٦، وإريك فروم، الإنسان بين المظهر والجوهر، ترجمة سعد زهران (الكويت، عالم المعرفة، ١٩٨٩)، ص ١٢٥-١٢٦، وإريك فروم، ما وراء الأوهام، ترجمة صلاح حاتم (للذقية، دار الحوار، ١٩٩٤)، ص ٧٧-٨٤، وإريك فروم، الإنسان من أجل ذاته، ترجمة محمود منقذ الهاشي (دمشق، منشورات وزارة الثقافة، ٢٠٠٧)، ص ٨٤-١٤٦، وإريك فروم، المجتمع السوي، ترجمة محمود منقذ الهاشي (دمشق، منشورات الهيئة العامة السورية، ٢٠٠٩)، ص ١٣٦-١٧٤، ١٨٨-١٩١، ٢٩٧-٣١٥.

من صياغة فروم للطبيعة السادوماسوشية للتسلطية، وإسهاماته الرائدة في البدايات التكوينية للنظرية النقدية، وفي سياق ما أنتجته الحربين العالميتين من اختلالات عميقة، وصراعات دامية، اشتغلت مدرسة فرانكفورت على تحليل البنية التعصبية، ضمن مشاريع عدّة، كان الأهم ما تزعمه الفيلسوف الجمالي الألماني ثيودور أدورنو Theodor Adorno (1903-1969)، وفيه اعتمد الباحثون مقارنة تحليلية نفسية اجتماعية لدراسة الأساس النفسي لفاشية الفرد الكامنة (Potentially Fascistic Individual)، النزعات الضمنية المعادية للديمقراطية Implicit Antidemocratic Trends، مُنطلقين من افتراض: إنّ قناعات الفرد السياسية والاقتصادية والاجتماعية ترابط - في الغالب - ضمن منطٍ يعبر عن نزعات عميقة في شخصيته، ولفهم تلك النزعات يجب فهم المجتمع ككل، بعوامله الاقتصادية وتماهيته الاجتماعية، وأنّ التوكيد على كون صراعات الجماعات صدمات مصالح اقتصادية لا يستوعب البواعث الانفعالية العميقة، فالبيئة الاجتماعية القائمة، الصارمة، العقابية، البطورية، التراتبية، السلطوية، تُنتج شخصية مُتشددة، ضعيفة، مُتلازمة من جُملة مُتغيرات: (١) التقليدية Conventionalism، و(٢) الخضوع التسلطي Authoritarian Submission، و(٣) العدوان التسلطي Authoritarian Aggression، و(٤) مضادة التأملية Anti-intracception، و(٥) الخرافة والنمطية Superstition and Stereotypy، و(٦) القوة والخشونة Power and Toughness، بنية الشخصية، ذات الخصائص هذه، هي الباعثة للتعصب^{١٢}. وقد تعرّضت هذه الصياغة النظرية إلى جملة تعديلات وتطويرات وتعميقات، فقدّم بوب التيمبر Altemeyer، في كتابه: أعداء الحرية Enemies of Freedom (١٩٨١)، التسلطية اليمينية Right-Wing Authoritarianism، وحصر - بناءً على دراسات عاملية وارتباطية - خصائص الشخصية التسلطية الجوهرية بالثلاثة الأولى^{١٣}. كما قدّم سيدانيوس وبراتو Sidanius & Pratto توجه الهيمنة الاجتماعية Social Dominance Orientation، في دراسة رائدة (١٩٩٤)، كبعيد آخر في التسلطية، يكرس تفضيل التفاوت، حيث تتكوّن عند فئات اجتماعية أساطير مُشرعنة للتراتبية^{١٤}. وقبل ذلك قدّم ميلتون روكيتش Milton Rokeach (1918-1988) العقلية الدوغماتية Dogmatic Mind، في كتابه: العقل المفتوح والمُغلق The Open and Closed Mind (١٩٦٠)، كبنية معرفية للتسلطية، فالخاصية الجوهرية للتسلطية - عنده - هي أنساق المعتقدات المُغلقة، المتمركزة حول جملة معتقدات ترتبط بالسلطة المطلقة، بدافع عميق هو الحاجة لتفادي التهديد في عالمٍ خطير^{١٥}. وفي كتاب: ديناميات التسلطية Authoritarian Dynamics

¹² Theodor Adorno et. al., *Authoritarian Personality* (New York, Harper, 1950), p.1-10, 228-240, John Duckitt, Authoritarian Personality, In Wright, eds., *International Encyclopedia of the Social & Behavioral Sciences* (Oxford, Elsevier, 2015), pp. 255–261.

¹³ Bob Altemeyer, The Other Authoritarian Personality, In Jost & Sidanius, eds., *Political Psychology*, (New York, Psychological Press, 2004), p.85-107, Benjamin Saunders & Josephine Ngo, The Right-Wing Authoritarianism Scale, In Zeigler-Hill & Shackelford, eds., *Encyclopedia of Personality and Individual Differences*, (Springer International Publishing, 2017), p.2.

¹⁴ Felicia Pratto et. al., Social Dominance Orientation: A personality variable predicting social and political attitudes. *Journal of Personality and Social Psychology*, 1994, V.67, pp.741-763, H. M. Crowson & P. H. Gries, Do Right-Wing Authoritarian and Social Dominance Orientation predict Anti-China attitudes? *Psicología Política*, N.40, 2010, pp.7-29, Arnold Ho et. al., Social Dominance Orientation: Revisiting the Structure and Function of a Variable Predicting Social and Political Attitudes. *Personality and Social Psychology Bulletin*, V.38, 2012, pp.583–606.

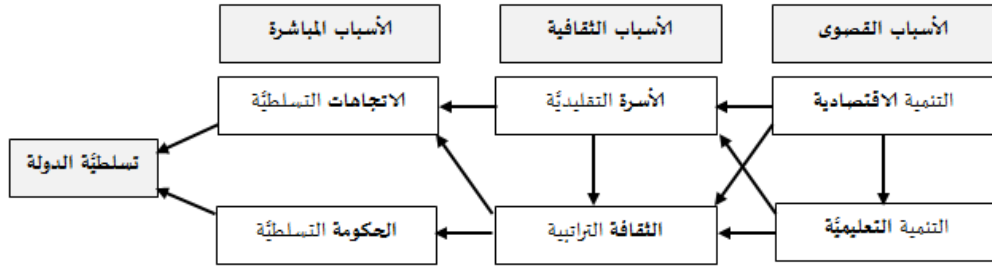
¹⁵ Milton Rokeach, The Nature and Meaning of Dogmatism, *Psychological Review*, V.61, 1954, P.194-204, Milton Rokeach, *The Open and Closed Mind*, (New York, Basic Books, Inc, 1960), p60-70.

(٢٠٠٥)، عمّلت كارن ستينر Karen Stenner على تأسيس مقاربة ديناميّة للتسلّطيّة، تجمّع النزعات الفرديّة والضغط البيئيّة، فالتسلّطيّة عمليّة سياسيّة ديناميّة، هي الباعث الأساس لعدم التسامح مع الاختلاف – الإثني والسياسي والأخلاقي – في كل زمانٍ ومكانٍ ونطاقٍ وثقافة، النزعة لتجميل الجماعة الداخليّة، وتشويه الجماعات الخارجيّة، عناصر وظيفية الترابط في موقفٍ دفاعي لتقليل الفرق وتوكيد الوحدة ضمن مأسسة وصيانة نظامٍ معياري جمعي، ومعاقبة من لا يطيعون ولا يمتثلون. التعبير عن التسلّطيّة يعتمد على البيئة، فتحت ظروف التهديد الجمعي المعياري Collective Normative Threat، يتصاعد تفعيل النزعة التسلّطية، وثبات التسلّطيّة، وتأثيرات النزعة التسلّطيّة على التعبيرات الظاهرة لعدم التسامح، واتساق تلك التظاهرات، فالسلوكيات والاتجاهات التعصبية – بالنتيجة – ليست بنية فردية أو اجتماعيّة، وإنما تفاعلات ديناميّة بين البنيتين^{١٦}.

ولتوظيف هذه التنظيرات في دراسة تسلّطيّة الدولة State Authoritarianism، قدّم جوس ميلون 2000 Melon نموذجه التكاملي متعدد الأسباب Integrated Multi-Causal Model، الذي يحدد فيه مفهوم الدولة التسلّطيّة بثلاثة مكونات: الأفكار Ideas التسلّطيّة (المحافظة التسلّطيّة، المعتقدات المتشددة، المتطرفة الإيديولوجية المطلقة)، والتنظيم Organization التسلّطي (الخضوع التسلّطي، التراتبية التنظيمية، من القمة إلى القاعدة)، والأفعال Actions التسلّطيّة (العدوان التسلّطي، توظيف العنف والرعب للبقاء في السلطة، واستعمال الدولة لتحقيق الشرعيّة للقوى التسلّطيّة، فالسمة الأهم للأنظمة التسلّطيّة: حكم الخوف)، ويرى فيه إنّ الثقافة السياسيّة التسلّطيّة تترابط مع تسلّطيّة الدولة، حيث تخلق الشروط النفسية الاجتماعية لبناء الدكتاتورية، ومكونات تلك الثقافة تتمثل بالنظم السياسيّة الرسميّة والبنية الأسريّة التقليديّة والتراتبية الثقافية والاتجاهات التسلّطيّة، كما يؤكد إنّ تسلّطيّة الدولة ليست فقط غياب الحريّات السياسيّة والمدنيّة، وإنما التنظيم والسلوك الفعليين للأنظمة السياسيّة، وبالتالي لا يكفي دراسة السمات القانونيّة والرسميّة للأنظمة، فذلك قد يهمل الأفعال الكامنة المنظّمة. ويحدد أسباب تسلّطيّة الدولة ضمن ثلاث فئات: (١) المباشرة Direct، تتضمن نمط الحكومة Type of Government، وهو السبب الرئيس، النظام السياسي التسلّطي، والاتجاهات التسلّطيّة Authoritarian Attitudes، الشخصيّة التسلّطيّة والدوغماتيّة التسلّطيّة، و(٢) الثقافيّة Cultural، تتضمن بنية الأسرة التقليديّة Traditional Family Structure، والثقافة التراتبيّة Hierarchical Culture، و(٣) القسوي Distal، وهي الأعمق، تتضمن التنمية الاقتصادية Economic Development، المستويات الاقتصادية وتوافر الخدمات الأساسيّة، وهي ليست ذات علاقة مباشرة بسيطة مع المخرجات السياسية، وإنما بتوسط الثقافة، والتنمية التعليميّة Educational Development، المستويات التحصيليّة، فيرى إنّ التنمية الاقتصاديّة والتعليميّة العاملين الأشد تأثيراً على تسلّطيّة الدولة، والتعليميّة – جزئياً – نتاج اقتصاديّة، وكلاهما يؤثران في القيم الثقافية والبنية الأسريّة، والثقافة التراتبيّة تبعث اتجاهات اجتماعيّة تسلّطيّة، والبنية الأسرية تؤثر في القيم والاتجاهات، والاتجاهات التسلّطيّة وتسلّطيّة النظام هما المؤثران المباشرين على تسلّطيّة الدولة^{١٧} (الشكل ١).

¹⁶ Karen Stenner, *Authoritarian Dynamic*, (Cambridge, Cambridge University Press, 2005), p1, 25-26, 33-35, Karen Stenner, Three Kinds of Conservatism. *Psychological Inquiry*, V.20, 2009, pp.142–159. Karen Stenner, K. & Jonathan Haidt, Authoritarianism is not a momentary madness, but an eternal dynamic without liberal democracies, In Sunstein, eds., *Can it happen here? Authoritarianism in America*, (New York, Harper Collins, 2018), pp.175-219.

¹⁷ Jos D. Melon, The Political Culture of State Authoritarianism, In: Stanly A. Renshon and John Duckitt, eds., *Political Psychology: Cultural and Cross-cultural Foundations* (New York, New York University Press, 2000), pp.108-127.



الشكل (١) أنموذج ميلون 2000 Melon التكامل متعدد الأسباب لتسلطية الدولة

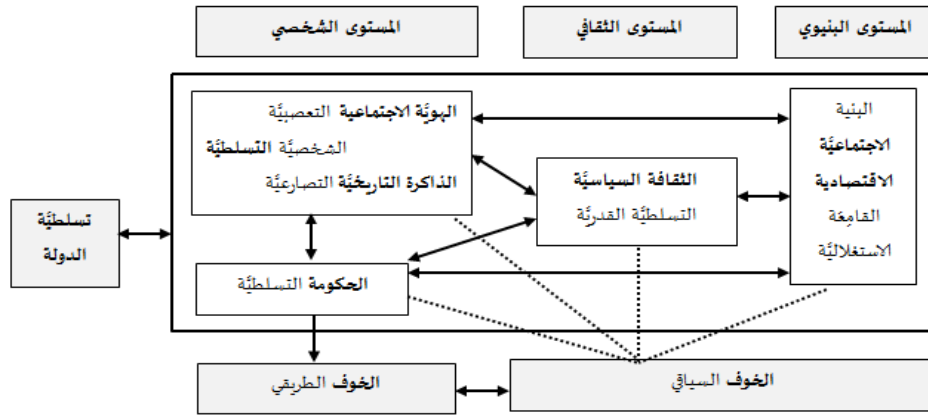
إيجابيات هذا الأنموذج تتمثل بكونه مميّز - بدقة - بين المجتمع والحكومة والدولة، وفرّق بين البنية القانونية الشكلية والبنية السلوكية الفعلية للدولة، واستوعب العوامل النفسية الاجتماعية الثقافية إلى جانب السياسية والاقتصادية. إلا أنّ سلبياته تتمثل بـ (١) خطيته وتبسيطيته التفسيرية، فمساراته أحادية الاتجاه، وليست تفاعلية، بينما الجدلية، التأثيرية التبادلية، هي جوهر العلاقات بين المتغيرات الإنسانية، و(٢) إغفاله للهوية الاجتماعية والذاكرة التاريخية^{١٨}، بينما تؤكد مختلف نظريات التسلطية مركزية هذين المتغيرين في تشكيل التسلطية، و(٣) إشارته المقتضبة إلى الثقافة السياسية^{١٩}، وكذلك لثقافة الخوف السياسية، فعلى الرغم من تأكيده إنّ الدولة التسلطية هي حكم الخوف، لم يتوغّل في دينامياته، وهو - كما يعتقد الباحث - جوهر التسلطية. الخوف Fear والاعتراّب Alienation والتسلطية Authoritarian أعمق مفاهيم المقاربة الإنسانية، وهي مُتلازمة، فالخوف جذرُ الاعتراّب والتسلطية، والتسلطية نزعة اغترابية. الخوف هو مولّد الإمكانية الاغترابية للحاجات الأصلية: التسلطية، والتدميرية، والتعصّبية، والقطيعية، واللاعقلانية، كما أنّه يكمن في عمق التوجهات اللإنتاجية: التقبيلية، والاستغلالية، والادخارية، والتسويقية. خوف الإنسان من العالم - الطبيعي والاجتماعي - هو ما يدفعه لتشويه إدراكاته وانفعالاته، باستعمال ميكانزمات دفاعية لاعقلانية، وابتكار نظم وسياقات وممارسات لتحقيق الأمن وتفادي التهديدات، الواقعية والمُتخيّلة. الجسدية والنفسية والاجتماعية. والانفعالات يُمكن أن تكون مُشتركة، انفعالات جمعية^{٢٠}، فالجماعات يُمكن أن تُشكل توجهات انفعالية جمعية Collective Emotional Orientations، وذلك يعتمد على الشعور المُشترك بالهوية الاجتماعية Social Identity، وما ينتج من ذاكرة جمعية Collective Memory، وأهم التوجهات الانفعالية الجمعية هو الخوف الجمعي Collective Fear، الذي يهيمن في المجتمعات ذات الصراعات المتبادلة القاسية، حيثُ الخطر المُحديق والتهديد المتواصل، في سياقٍ من الأحداث الاجتماعية التراجيدية، والحصارات العسكرية والاقتصادية، الممتدة لعقودٍ من الزمن، والقائمة بعمق في الذاكرة التاريخية، فيتغلغل في النسيج النفسي للمجتمع، ويطلع روحه Ethos، ويؤدي وظيفتين تكيفية

¹⁸ Henry Tajfel and John Turner, The Social Identity Theory Of Inter Group Behaviour. In Jost & Sidanius, eds., *Political Psychology* (New York, Psychology Press, 2004), pp.276-293; Maurice Halbwachs, *On Collective Memory*, Translated by L. A. Coser (Chicago, University of Chicago Press, 1992), James Pennebaker, Dario Paez and Bernard Rime, eds., *Collective Memory of Political Events : Social Psychological Perspectives* (New Jersey, Lawrence Erlbaum Associates Publishers, 1997).

¹⁹ Gabriel Almond and Sidney Verba, *The Civic Culture : Political Attitudes and Democracy in Five Nations* (Boston, Little, Brown and Company, 1965).

²⁰ Mikko Salmela, The Functions of Collective Emotions in Social Groups, In: A. Konzelmann Ziv and H.B. Schmid, eds., *Institutions, Emotions, and Group Agents. Studies in the Philosophy of Sociality* (Springer, 2014), pp.159-176; Christian von Scheve and Sven Ismer, Towards a theory of collective emotions, *Emotion Review*, V. 5(2016), pp.406-413.

وتدميريّة، التكيّفيّة تتجلى في حشده لاستعداد ثابت لمواجهة التهديدات المحتملة وغير المحتملة، وخلق الحساسيّة لعلامات المهددات، ويزيد التماسك والتقارب في نظرة الجماعة للتهديدات، ويبعث النزعة الدفاعية الاجتماعية، والتدميريّة تتجلى في تأسيسه لتجمّد المعتقدات الجمعيّة المرتبطة بأسبابه وأطرافه وطرائق مواجهته، ويضيق المنظور بربط الحاضر بالخبرات الصراعيّة الماضية، وبناء التوقعات المستقبلية على تلك الخبرات، كما أنّ الحساسية المفرطة الناجمة عنه قد تشوه تفسير العلامات والمعلومات باتجاه السلبيّة، ويولد انفصال هائل عن الجماعات الأخرى، ويكون الباعث الأساس للعنف كاستراتيجيّة أوليّة ووحيدة للتعامل مع الأحداث. ويُمكن التفريق بين الخوف كسياق Fear as Context، والخوف كطريقة Fear as Method، الأوّل يُشير إلى الخوف الباعث، الكامن، في السياقات المجتمعيّة، بينما الثاني هو استعمال الخوف بهدف الهيمنة²¹. وما تركز عليه الدراسة الحاليّة – بخلاف دراسات التسلطيّة التقليديّة – هو الأوّل، ذلك الخوف المؤسّس، فالتسلطي – فرداً أو جماعة أو ثقافة أو دولة – وجود خائف، مُغترب، يحاول تخفيف خوفه، وقهر اغترابه، بطريقة مشوّهة، تعمل – في الحقيقة – على تكريس خوفه واغترابه (الشكل ٢).



الشكل (٢) نموذج البنية الاغترابية للدولة التسلطيّة

الدولة العراقيّة وديناميّاات الخوف

الخوف الوظيفي Functional Fear

(الخوف الاقتصادي المجتمعي – الخوف التسلطي السلطوي: ١٩٢١-١٩٥٨)

في ساحة القشلة (٢٣ - ٨ - ١٩٢١)، بإشراف السير بيرسي كوكس Percy Cox (١٨٦٤-١٩٣٧)، ممثل الإمبراطورية البريطانيّة المنتصرة، تم تتويج فيصل بن الحسين (١٨٨٣-١٩٣٣)، الهاشمي الحجازي، ملكاً على العراق، وكانت هذه اللحظة الفارقة الأولى في تاريخ الدولة العراقيّة الحديثة. وفي مذكرته الشهيرة، في (١٥-٣-١٩٣٢)، قبّل وفاته بسنة ونصف، قال الملك فيصل الأوّل: "العراق مملكة تحكمها حكومة عربيّة سنّيّة، مؤسّسة على أنقاض الحكم العثماني، وهذه الحكومة تحكم قسماً كدياً أكثرته جاهلة، بينه أشخاص ذوو مطامع شخصيّة، يسوقونها للتخلي منها بدعوى أنها

²¹ Maria Jarymowiczi and Daniel Bar-Tal, The dominance of fear over hope in the life of individuals and collectives, *European Journal of Social Psychology*, V.36 (2006), pp.367–392; Chana Teeger, Collective Memory and Collective Fear: How South Africans Use the Past to Explain Crime, *Qual Sociol*, V.37 (2014), pp.69–92; Holger Modler, The Culture of Fear in International Politics: A Western Dominated International System and its Extremist Challenges, *ENDC Proceedings*, V.14 (2011), pp.241-263; Annegrete Palu, *Culture of Fear: Fear as Context and as Method of Political Influence* (Thesis, University of Tartu, 2014).

ليست من عنصرهم، وأكثريّة شيعيّة جاهلة، منتسبة عنصرياً إلى نفس الحكومة، إلا أن الاضطهادات التي كانت تلحقهم من جراء الحكم التركي الذي لم يمكنهم من الاشتراك في الحكم، وعدم التمرن عليه، والذي فتح خندقاً عميقاً بين الشعب العربي المنقسم إلى هذين المذاهبين، كل ذلك جعل مع الأسف هذه الأكتريّة، أو الأشخاص الذين لهم مطامع خاصة الدينيون منهم، وطلاب الوظائف بدون استحقاق، والذين لم يستفيدوا مادياً من الحكم الجديد، يظهرون بأنهم لم يزالوا مضطهدين لكونهم شيعة، ويشوقون هذه الأكتريّة للتخلي من الحكم الذي يقولون بأنه سيء بحت ... أقول وقلبي ملآن أسى: أنه في اعتقادي لا يوجد في العراق شعب عراقي بعد، بل توجد كتلات بشرية خياليّة، خالية من أي فكرة وطنيّة، متشعبة بتقاليد وأباطيل دينية، لا تجمع بينهم جامعة، سمّاعون للسوء، مَيّالون للفوضى، مستعدون للانتفاض على أي حكومة كانت"^{٢٢}. وبقدر ما تنطوي عليه هذه الكلمات - والمذكورة ككل - من صدق وحكمة، بقدر ما هي فوقيّة اختزاليّة، والمنطق العام لهذه المذكرة هو السائد في ذهنيات النُخب الحاكمة، وإن بكيفيات وأهداف متفاوتة، وكذلك في الدراسات، ففيها نجدُ لغة الثلاثيّة المكوناتيّة الغالبية، والتعدديّة السالبيّة^{٢٣}. وتحليلُ هذه المذكرة في غاية الأهميّة لتبيان العقليّة الحاكمة، إذ صيغت لتحديد الرؤية النظرية، في تلك اللحظة التأسيسية البنائيّة، في ذروة العقلانيّة البنائيّة بالمقاييس بما بعد ذلك، وبعد عقدٍ من ممارسة السلطة، فنجد (١) الغياب التام لمفردات العدالة والفقر والاستغلال، و(٢) الحضور الكثيف للصورة السلبية عن الناس لجهلهم وتنوعهم، و(٣) الخوف الحاد من الناس وتوكيد ضعف الدولة وضرورة القوّة العسكريّة، فليس هناك حفر في - أو إشارة إلى - الأسباب والإشكاليّات العميقة، وبتعبيرات الأنموذج، ليس هناك اشتغالاً على العناصر البنيوية والثقافيّة، بل على سطح الشخصية.

المجتمع العراقي - آنذاك - لم يكن يتجاوز الـ (٣,٠٠٠,٠٠٠) نسمة، بغالبية ريفيّة تصل إلى (٨٠%)^{٢٤}، في مناطق متناثرة، منعزلة، في بيئة بائسة تفتقد أبسط مقومات الحياة الخدميّة والتواصلية. فكانت تلك "الكُتلات" مُستنزفة مُغتربة، عاشت قرابة (٢٥) قرناً من الاحتلالات القاسية، وشهدت جماعات وثقافات هائلة التنوع^{٢٥}، وانتهت عند سيطرة اقطاعيّة قاسية، فكان الإنسان العراقي - ببساطته - يعيش أزمات معيشيّة متراكبة، لم تُتج له اهتماماتٍ أوسع، بل انغراسٍ في هويّته المحليّة والعشائريّة، وليس - إلى حد كبير - الدينيّة والطائفيّة والوطنية، كما فرضت طبيعة بيئته ثقافة ترابطيّة بطبركيّة خانقة، ومنظومة قيمية صارمة وعنيفة، تجلّت في تكريس مفردات الخوف والحزن والغضب في اللغة اليوميّة والأدبيّة والسلوكيات الفرديّة والاجتماعيّة، لا على نحو الجوهريّة الثقافيّة، بل السياقيّة الاجتماعيّة،

^{٢٢} عبد الرزاق الحسني، تاريخ العراق السياسي الحديث (بيروت، الرافدين للطباعة، ٢٠٠٨)، ج ١، ص ١٠-١٢.

^{٢٣} هيمنة هذه الرؤية عند النُخب الحاكمة شديد الوضوح، وفي الدراسات المتنوعة عن الدولة العراقية كذلك، وكمثال يُنظر: ليورا لوكيتز، العراق والبحث عن الهوية الوطنية، ترجمة دلشاد ميران (أربيل، دار نارس للطباعة والنشر، ٢٠٠٤)، وعلي وتوت، الدولة والمجتمع في العراق المعاصر (اطروحة دكتوراه، كلية الآداب، جامعة بغداد، ٢٠٠٤).

^{٢٤} فيما يخص الأعداد والنسب في هذا الموضوع وما سيليه، يُنظر: محمد سلمان حسن، دراسات في الاقتصاد العراقي (بيروت، دار الطليعة، ١٩٦٦)، ص ١٥٩-٢١١، اللجنة الوطنية للسياسات السكانية، حالة سكان العراق ٢٠١٠ (العراق، صندوق الأمم المتحدة للسكان، ٢٠١١)، ص ١٥-٢١، اللجنة الوطنية للسياسات السكانية، تحليل الوضع السكاني العراق ٢٠١٢ (العراق، صندوق الأمم المتحدة للسكان، ٢٠١٢)، ص ٢٢-٢٥.

^{٢٥} يُنظر: طه باقر، مقدمة في تاريخ الحضارات القديمة (بيروت، دار الوراق، ٢٠٠٩)، مجموعة من الباحثين، العراق في التاريخ (بغداد، دار الحرية للطباعة والنشر، ١٩٨٣)، مجموعة من الباحثين، حضارة العراق (بغداد، دار الحرية للطباعة، ١٩٨٥)، ستيفن لونكريك، أربعة قرون من تاريخ العراق الحديث، ترجمة جعفر الخياط (مكتبة اليقظة العربية، ١٩٨٥)، علي الورد، لمحات اجتماعية من تاريخ العراق الحديث (بيروت: دار الراشد، ٢٠٠٥)، ج ١-٤، رشيد الخيون، الأديان والمذاهب بالعراق (الرياض، مركز المسبار للدراسات والأبحاث، ٢٠١٦).

فالسباقات الحاقفة بالحياة الاعتيادية للناس كانت تدفع باتجاه ديمومة تلك الثيمات، ومع تشكُّل الدولة الحديثة لم يتم تخفيف ذلك الخوف، بل تم تعزيزه، فعلى الرغم من كل ما قامت به الملكيّة ممارسات طورت الطبقة الوسطى، والبنية التحتية، والحركات السياسيّة والثقافيّة، لكن من جانب آخر - نتيجة إغفال الإشكاليّة الأساسيّة - سمحت بتصاعد الاقطاعيّة بشكل غير مسبوق، فبعد أن سعت إلى تحديد سلطة الشيوخ - الحاكمون الفعليون للريف العشائري - في العشرينات والثلاثينات، عادت لتتحالف معهم في الأربعينات والخمسينات "لمواجهة القوة الاجتماعية الجديدة: النخبة الثقافيّة"، مُخْلِفةً سلطةً هائلةً مُطلَقة، حوَّلت الفلاحين - أغلبية الشعب - إلى "ما يشبه الرقيق"، في سياق التحولات من اقتصاديات الكفاف إلى اقتصاديات السوق، وهو ما اضطرَّ فئات واسعة من الفلاحين الجنوبيين إلى الهجرة الهروبيّة، والإقامة في خرائب على هامش المدينة، والقوّة النفطيّة المتزايدة كرّست استقلاليّة الدولة عن المجتمع، وزادت القدرة على "ممارسة الحكم الاستبدادي المُطلق"^{٦٦}.

لم تُدرِك السلطة بنية الخوف السياقي المتكثفة في تلك "الكُتلات"، المؤسسة - على خلفية من البنية الاجتماعية الاقتصادية القائمة الاستغلاليّة - للتوجهات الإنتاجية، التلقفيّة والاستغلاليّة، والثقافة التقليديّة الطبقيّة، والشخصيّة التسلطيّة، والهويّات الفرعيّة التعصبيّة، والذاكرات التصارعيّة، حيث الخوف من الحرّيّة والآخر والعالم، ذلك الخوف المتمركز حول "المعيشة"، والمتجلى في النزعات الشخصيّة والعلاقات الاجتماعيّة والتوجُّهات السياسيّة، مع تزايد مُحركاته من تزايد الاستنزاف، وتعاظم الهيمنة الاقطاعية والدولتية والاحتلاليّة، وما كانت الخطابات المُعارضّة والاحتجاجيّة إلا تعبيراتٍ عن ذلك الخوف، بشعارين أساسيين: العدالة والاستقلال، تلك الخطابات التي تأسست وتنامت في البيئات الجنوبيّة الفقيرة^{٦٧}. لم تدرك السلطة ذلك لأنها - بذاتها - كانت مسكونة بالخوف، فهي - إلى حد ما - جزء من ذلك المجتمع، متأثرةً به، كما أن موضعها يضاعف الخوف، ضمن خلق قناعاتٍ وسردياتٍ مُغايرة، وكما مرّ في كلمة الملك: "كتلات بشريّة خياليّة، خالية من أي فكرة وطنيّة، متشعبة بتقاليد وأباطيل دينية، لا تجمع بينهم جامعة، سمّاعون للسوء، ميالون للفوضى، مستعدون للانتفاض على أي حكومة كانت"، هذه الرؤيّة، والتمثّل، هي ما وجّه الفعل، وبشكل خاصٍ ضمن نُخبة - كما ذُكر - "ذات ثقافة تسلطيّة"، لم تتمكّن من استيعاب الخوف، ولا تطوراتِهِ اللاحقة، بل واجهته بسياسة عمّقت - بشكل غير مباشر - من محركاته، وقاومته بخوفٍ مُضادٍ، عبر زيادة هيمنة القوى القديمة، وتوظيف الخوف الطريقي مع بعض التمردات (كما في ١٩٣٧، ١٩٣٨، ١٩٤١، ١٩٤٨، ١٩٥٢، ١٩٦٥)، وبشكلٍ مفرطٍ القسوة في بعض الحالات، وعدم التفاعل مع خطابات وتصورات القوى الجديدة، المنبثقة من الطبقة الوسطى النامية، ف "نزعتهم التسلطية، وعدم قبولهم بنقل السلطة إلى الجيل الجديد، والخلافات التافهة فيما بينهم، وعدم قدرتهم على التواصل مع ناخبهم الجدد في بيئة تشهد تغيرات سريعة" كانت العامل الأساس لسقوطهم، حيث قادت إلى جمود المؤسسات السياسيّة ضمن استراتيجيّة "تدوير النُخبة"، والتحالف مع السلطات الإقطاعية، وهيمنة طبقة

^{٦٦} يُنظر: حنا بطاطو، الشيخ والفلاح في العراق، ترجمة: صادق عبد علي (بغداد، سطور، ٢٠١٨)، حنا بطاطو، العراق: الطبقات الاجتماعية والحركات الثورية من العهد العثماني حتى قيام الجمهورية، ترجمة عفيف الرزاز (بيروت، مؤسسة الأبحاث العربية، ١٩٩٥)، ص ٥٢-٥٠، وليام بولك، لكي نفهم العراق، ترجمة عبد الحي يحيى زلوم (بيروت، المؤسسة العربية، ٢٠٠٦)، ص ١٢٣-١٣٧، كريم حمزة، "تاريخ الاستخدام السياسي للهوية المحلية العشائرية في العراق: تخدام الدولة والمشخة"، عمران، العدد ١٩ (٢٠١٧)، ص ٨٩-١١٨، عبد الزهرة الركابي، "العشيرة في العراق ودورها السياسي"، حوار العرب، العدد ١٩ (٢٠٠٦)، ص ٤٠-٤٧.

^{٦٧} مما له دلالتة البالغُة في ذلك، تشكُّل الحزب الشيوعي العراقي في أواسط الثلاثينات، وانتشاره الواسع، وتركيز النظام الملكي لعدائِهِ وقمعِهِ عليه، يُنظر: حنا بطاطو، العراق: الحزب الشيوعي، ترجمة عفيف الرزاز (بيروت، مؤسسة الأبحاث العربية، ١٩٩٥).

سياسية ضيقة، وتذبذب الديمقراطية، وهيمنة السلطة التنفيذية، وتفتيت السلطة البرلمانية، كل ذلك لمواجهة معضلتين: "كيفية الحصول على الشرعية من دون فقدان السيطرة السياسية، وكيفية الاستجابة إلى الأفكار الثورية من دون خسارة العلاقات التقليدية الاستراتيجية"، مما انتهى إلى "الدولة الضعيفة من فقدان الشرعية الشعبية، وقلة الانجازات الاجتماعية والاقتصادية"²⁸.

خوف المجتمع في هذه اللحظة كان - بشكل أساس - اقتصادياً، فقد نخر الاقطاع والفقروالبؤس والاحتلال حياة الناس، بينما كان خوف السلطة تسلطياً، توقُّقاً للهيمنة والبقاء في السلطة، في سياق مليء بالمهددات، فالنزعة التسلطية في شخصيات النخبة، والتوقُّق الجارف للسيطرة، بدافع الخوف، كان يخلق ارتداداتٍ على الخوف الاقتصادي عند المجتمع، فيزيده، ويراكمه، ويدخله في مسارب متنوعة، وظيفية الخوف عند السلطة تجلت في معقوليته النسبية، وليس عقلانيته أو مقبوليته، فقد كانت هناك رغبة - جادة إلى حد ما - ببناء دولة، مع وجود عقبات موضوعية معقدة، ترتبط بالسلطة المشيخية والبريطانية، والضغطات الإقليمية والعالمية، وضعف الإمكانيات الدولية، وكان هناك مقدار من الحكمة السياسية، أوجد سياق لانطلاق بعض عناصر التوجه الإنتاجي، تجلت في التيارات الفكرية والسياسية، ولاسيما اليسارية²⁹، إلا أنه لم يكن بمستوى تخفيف خوف المجتمع. في هذه اللحظة كانت جدلية الخوف هي الفقر - الهيمنة، وهدف السلطة امتلاك الدولة، وبسبب طبيعة الخوف انتقلت من اللادولة إلى الدولة الضعيفة.

الخوف الغائي Teleological Fear

(الخوف السياسي المجتمعي - الخوف التدميري السلطوي: ١٩٥٨-١٩٧٩)

في قصر الرحاب (١٤ - ٧ - ١٩٥٨)، ومع إطلاق الجندي عبد الستار العبوسي (١٩٣٠-١٩٧٢) الرصاص على العائلة المالكة: الملك وخاله وجدته وخالته، وسجل الجماعات الغاضبة للوصي عبد الإله (١٩١٣-١٩٥٨) ونوري السعيد (١٨٨٨-١٩٥٨)، بعد الانقلاب العسكري الذي قاده عبد الكريم قاسم (١٩١٤-١٩٦٣)، دخل المجتمع العراقي في مرحلة جديدة من الخوف، هو الخوف السياسي، إذ بدأت "جمهورية الاستبداد". وقد جاء في البيان رقم (١): "لا يمكن للنصر أن يكون كاملاً إلا بحمايته من مؤامرات الإمبريالية وأدواتها، لهذا فإننا نتوجه إليكم بالنداء للإفاداة إلى السلطات عن كل المنتهكين والخونة والفاستدين لكي يتم اقتلاعهم"، في تجلٍ لإرهاصات العقلية المؤامراتية الاقتلاعية، وبالفعل، جرت عمليات جماهيرية واسعة من العنف، برعاية - أو بتغافل - الانقلابيين، فقد كان هناك استعدادٌ مُسبقٌ لذلك عند فئات واسعة من الناس الغاضبة والكارهة للملكية، وكان تحركهم عاملاً أساساً في نجاح الانقلاب، إذ خرج - في اليوم الأول - ما لا يقل عن (١٠٠,٠٠٠) فرد في بغداد فقط، تنامي في الأيام التالية، كان لخروجهم و"الوحشية التي عبّر فيها بعضهم - على الأقل - عن مشاعرهم، وزن كبير في تحديد النتيجة التاريخية لذلك اليوم المصيري ... فقد عرقلت هذه الحركة أية أعمال مضادة معادية ممكنة بسدها الشوارع والجسور، لا في بغداد فحسب، بل في مدن أخرى أيضاً، والأهم من هذا هو أنه كان للجماهير - بفضل عنفها - تأثير نفسي هائل، إذ إنها زرعت الرعب في قلوب مؤيدي الملكية، وأسهمت في شل إرادتهم، وأعطت الانقلاب طابع العمل الذي لا سبيل إلى مقاومته، وهو ما شكّل الحصن الحصين له"³⁰.

²⁸ Adeed Dawisha, *Iraq: A Political History* (Princeton: Princeton University Press, 2009), p.148, 169-170.

²⁹ للتوسع في ذلك يُنظر: حنا بطاطو، العراق: الطبقات الاجتماعية، ص ٥٠-٥١، كمال ديب، موجز تاريخ العراق: من ثورة العشرين إلى الحروب الأمريكية والمقاومة والتحرير وقيام الجمهورية الثانية (بيروت: دار الفارابي، ٢٠١٣)، ص ٦٢-٦٣.

³⁰ حنا بطاطو، العراق: الشيوعيون والبعثيون والضباط الأحرار، ترجمة عفيف الرزاز (بيروت، مؤسسة الأبحاث العربية، ١٩٩٥)، ص ١١٢، ١١٥.

تراكم الخوف، في المجتمع والسلطة، وجد انعكاساته في تصاعد العنف، عند المجتمع بالتعبير عن غضبهم الهائل من السلطة الملكية التي لم تعالج إشكالياتهم الأساسية، وكذلك في الصورة المثالية للزعيم في مخيالهم، والتي - مما له دلالة بالغة - تواصلت حتى اليوم، بشكل لافت، لم يحصل مع "أي حاكم آخر في تاريخ العراق الحديث"، لا شيء إلا لاهتمامه بالفقراء، وخطابه المؤكد لذلك، وحياته البسيطة، ونزاهته، على الرغم من أنه سعى - في الوقت ذاته - إلى كسب ود الفئات الغنية، وقيامه بـ "لعب دور الوسيط في المجال الحيوي للعلاقات المتبادلة بين الطبقات"³¹، إضافة إلى كون ما قام به لم يُغير ظروفهم بشكل جذري، إذ سرعان ما انطفأ الأمل المتوهج³²، ولكن اصطفاؤه معهم، بخطوات محددة ملموسة، جعلتهم يقدسونه، في إشارة واضحة لكونه مسَّ العصب الحساس للبنية العميقة في ذاتهم الجمعية. إلا إن ذلك جاء في سياق من التسليطة المجتمعية، حيث جماعات كبيرة أغرقت بالتعظيم، وذات مُستعدة لذلك، وانتهت بتركز الحكم كله في ذاته، تلك الذات الخائفة، المحاطة بتهديدات الإشاعات والمؤامرات³³، فشكَّلت نقطة التقاء للتوجهات التقبيلية والاستغلالية، وتطرُّفات الشخصية التسليطة، والتقاطعات الهوياتية التي تبلورت خلال العقود الماضية، والذاكرات المُتصارعة، المشحونة بالانفعالات، عن الانتكاسات والاختلالات والانتهاكات، هذه النزعة كرَّست ضرورة العنف، وشيَّدت "ماكينة الدكتاتورية"³⁴ Machinery of Dictatorship.

لعلَّ مرحلة قاسم من أشدِّ مراحل التاريخ العراقي تعقيداً، إذ شهدت تطلعات وخيبات شديدة، وكانت ساحة لصراعات التيارات السياسية التي أخذت بالتشكل التدريجي في المرحلة الملكية: اليسارية والقومية والدينية³⁵، وكذلك

³¹ يُنظر: حنا بطاطو، المصدر نفسه، ص ١٥٠-١٥٣، ٢٩٦، كمال ديب، مصدر سابق، ص ٧٤-٧٥.

³² U. Dann, *Iraq under Qassem: a political history, 1958-1963* (Praeger Publishers, 1969); Jean-Baptiste Gallopin, *From Populism to Authoritarianism – The Trajectory of the Iraqi Regime under Abd al-Karem Qasim, 1958-1963* (2009).

³³ يُنظر: حنا بطاطو، العراق: الشيوعيون والبعثيون، ص ١٧٢، عضيد داويشة، مصدر سابق، ذكر: "بعد عام من الانقلاب، كانت الصورة النهائية لشكل السلطة في الحقبة الجمهورية قد تشكلت، حيث كانت السلطة تتركز في المركز بشكل لم يكن معروفاً من ذي قبل، ففي الحقبة الملكية صحيح أن السلطة تركزت بين عبد الإله ونوري السعيد، إلا أن هناك نوعاً من تشاركها بين السياسيين الكبار، بالإضافة إلى بعض القيود على عملية صنع القرارات التي وفرها وجود المعارضة، حيث كانت التعددية السياسية موجودة في النظام، ولو بصورة ظاهرية، أما الآن فإن قاسم سيصبح الزعيم الأوحده بكل معنى الكلمة، فبعد أن قام بتحييد عارف والقوميين وتحجيم الشيوعيين، فإن هدفه ذهب أبعد من مجرد تركيز القرار السياسي بيده إلى أن يكون النظام ككل متمحوراً حوله، وحوله فقط" (ص ٢٠٠)، وليم بولك، مصدر سابق، قال: "لم يبق قاسم طويلاً على قيد الحياة بعد أن أغرقه المملقون بطوفان من المدائح التي تشيد بعظمته وعبقريته... كان قاسم رجلاً بقدرات محدودة وإنجازات متواضعة. فشرب حتى الثمالة من كأس الغرور وشعر بالخيلاء عندما وصف بأنه الزعيم الأوحده، وعندما بدأ رفيقه في السلاح: العقيد عارف، بكسب أنصار يؤيدونه في معزل عن قاسم، أبعده إلى منفى مهذب بتعيينه سفيراً للجمهورية العراقية في ألمانيا الاتحادية، وعندما حاول أن يعود، سارع قاسم إلى اعتقاله، وأولئك الذين داعهم الأمل بأن الثورة قد فتحت أبواب العراق للمشاركة الشعبية، خاب أملهم بسرعة فائقة، وأبنة فئة بدأت - أو كانت تبدو أنها قد بدأت - تكتسي وضعباً مستقلاً، كانت تُعامل على الفور معاملة العدو، وحتى مؤيدوه من الأكراد والشيوعيين ورفاقه من ضباط الجيش تعلموا أن يشعروا بالرهبة من نظراته" (ص ١٤٨).

³⁴ Karol Sorby, "The Political Climate in Iraq in The Aftermath of The 1958 Revolution". *Asian & African Studies*. V.14 (2005). pp.167-186.

³⁵ الحزب الشيوعي أقدم الأحزاب وممثل الحركة اليسارية، وإن تكوّن في الثلاثينيات، ونشط بعد ذلك، إلا أنه تماهى بحكومة عبد الكريم قاسم، وهمَّشَه قاسم، وواجه أقصى مصائره بعد ذلك، خلال المواجهة مع القوميين والإسلاميين، وممثل الحركة القومية كان حزب البعث الذي تكوّن في أواخر الأربعينات، والحركة الدينية تمثّلت في جناحها السني في حركة الأخوان المسلمون التي تشكلت في أواسط الأربعينات، وفي جناحها الشيعي بحزب الدعوة الذي تشكّل في أواخر الخمسينيات. للتوسُّع في ذلك يُنظر: حنا بطاطو، العراق: الشيوعيون والبعثيون، شبلي

الصراعات الاقليمية والدولية، حيث الناصرية والشاهنشاهية، والسوفيتية والبريطانية والأمريكية. وقد ساعدت دكتاتوريته على إيجاد المبررات لمعاداته من الجميع، وهو ما استثمره القوميون، بمساعدة ناصرية وأمريكية، بزعامة غريمه عارف، للانقلاب عليه، الذي تصاعد بدناميات الخوف خطوة مهمة، فتأسس "الحرس الجمهوري" العارفي و"الحرس القومي" البعثي ليمارس ضد الشيوعيين والقاسميين "أبشع عملية تصفية وإبادة عرفها العالم العربي حتى ذلك الحين"، ويبتكر البعثيون "أساليب غير معهودة للتعذيب"، وتنبثق الذات المتضخمة عند عارف، بتجليات قومية وطائفية، لتتواصل ذات العملية "زرع أهمية القائد في وجدان الشعب، وكانت النتيجة إما نفي الحلقات الوسطية أو - في أفضل الحالات - السماح لمؤسسة واحدة بتمثيل الجماهير، ولكن تلك المؤسسة لم تكن إلا أداة بيد الحاكم لتحشيد الدعم للقائد ... ففي هذا المناخ كانت هنالك أهمية كبيرة ليست فقط للقدرة على استخدام المؤسسات القمعية للدولة، بل على استغلال الطبيعة الإنسانية غير الودية، مما وفر أرضية خصبة لانقلاب ١٩٦٨، الذي شرع الباب أمام أكثر الحقب عنفاً في التاريخ العراقي"^{٣٦}. فكانت النتيجة انقلابه على البعثيين أنفسهم، وتصفيتهم، واستفراجه بالسلطة، الذي سرعان ما ارتد بانقلاب أشرس، قاده البعثيون، مؤسسين حكومة الحزب الواحد، وتنفيذ تصفيات أوسع وأعنف من السابقة، لم تطل المعارضين فحسب، وإنما الشخصيات الرئيسية في حزب البعث ذاته، فصفيت - بالاعتقالات والإعدامات - زعامات بارزة فيه، لتتحصر السلطة ضمن جماعة قروية واحدة ضيقة "تكرتية"، حيث يقف في الواجهة أحمد حسن البكر (١٩١٤-١٩٨٢)، وفي الخلفية العميقة "السيد النائب" صدام حسين. وقد "استقبل الناس تغير الحكم بلا مبالاة مطلقة، إذ كانوا قد تعبوا من لعبة القوة الجارية بين الضباط، ومن بلاغاتهم المملة، وبدا الأمر كله أبعد ما يكون عنهم، وعن صعوبات حياتهم اليومية"^{٣٧}.

تضاعف في هذه المرحلة سكان العراق، فبعد أن كان قد وصل إلى (٦,٥٠٠,٠٠٠) في (١٩٥٧)، بلغ في (١٩٧٧) قرابة (١٢,٠٠٠,٠٠٠)، وضربت القطاعات بقوة في قانون الإصلاح الزراعي (٣٠-١٩٥٨)، وشهد العراق ذروة قوته الاقتصادية، فشهد المرحلة الصناعية (القسامية) والتنموية الانفجارية (البعثية)، إلا إن تلك الذروة واجهت اخفاقات عميقة، لعوامل سياسية تمثلت بالقيود والتوجهات السلطوية المستقرة، وتبرير القرارات المركزية فيما يُعرف بـ "التخطيط اللاحق"، ولعوامل اقتصادية ارتبطت بالاعتمادية النفطية، وازدواجية المعايير القطاعية، والتوسع الاستثماري غير المدروس، ولعوامل إدارية تعلق بالكفاية والخبرة والنزعة لـ "تضخيم المنجزات وإخفاء الأخطاء"، وإضافة إلى ذلك تعاظم القطاع العام على حساب القطاع الخاص^{٣٨}، ويُمكن أن نلاحظ في هذه العوامل خيوطاً تحتية واضحة لتنامي النزعة التقديسية الفردية، في سياق من الثورية العسكرية، فبعد أن كانت مخططات مجلس الإعمار الملكي تعتمد الخطوات الواقعية المدروسة الهادئة، دُفعت الحماسية الثورية الذاتية إلى خطوات اندفاعية لاواقعية، مع تقوية السلطة بالثروة النفطية.

العيسوي، حزب البعث العربي الاشتراكي: مرحلة النمو والتوسع ١٩٤٩-١٩٥٨ (بغداد، دار الشؤون الثقافية، ١٩٨٧)، محسن عبد الحميد، الأخوان المسلمون في العراق: ١٩٤٤-٢٠٠٣ (٢٠١٢)، علي المؤمن، سنوات الجمر: مسيرة الحركة الإسلامية في العراق: ١٩٥٧-١٩٨٦ (مركز دراسات المشرق العربي، ٢٠٢٠).

^{٣٦} يُنظر: كمال ديب، مصدر سابق، ص ٧٥-٧٧، داويشة، مصدر سابق، ص ٢٣٠، بولك، مصدر سابق، ص ١٥١.

^{٣٧} يُنظر: حنا بطاطو، العراق: الشيوعيون والبعثيون، ص ٣٨٩-٤٢٥، عضيد داويشة، مصدر سابق، ص ٢٣١-٢٣٩، كمال ديب، مصدر سابق، ص ٧٩-١١٠.

^{٣٨} يُنظر: صباح كجه جي، التخطيط الصناعي في العراق: أساليبه وتطبيقاته وأجهزته ١٩٢١-١٩٨٠ (بغداد، بيت الحكمة، ٢٠٠٢)، حسين علي المرشدي، السياسة النفطية لحكومة عبد الكريم قاسم ١٩٥٨-١٩٦٣ (رسالة ماجستير، جامعة المثنى، ٢٠١٦).

وتعاضم الربعية^{٣٩}، في سياق كرس عند النخبة توفاً لا للهيمنة فحسب، بل لإفناء المعارض، فهناك خوفٌ من بقاء الآخر، خوفٌ عارم، لا حلاً له إلا بإفناؤه، والاستفراد بالسلطة، خوفٌ تدميري، لا تسلطي، تجلى في تصاعد "الأوحد"، والتصفيات الدموية المتبادلة، تصفية البعثيين والشيوعيين والإسلاميين، ثم تصفية البعثيين للبعثيين المعارضين. إذ شهدت هذه المرحلة ذروة صراع الحركات السياسيّة، وانبثاق الخطابات الهويّاتيّة، والسرديات التاريخيّة المتصارعة. زاد ذلك من عمق الاغتراب والخوف، ومأسسته في بنية النظام السياسي. في هذه اللحظة كانت جدليّة الخوف – إضافةً إلى ما سبق – هي القمع – التفرد، وهدف السلطة توظيف الدولة، وبسبب طبيعة الخوف انتقلت من الدولة الضعيفة إلى الدولة الضارية.

الخوف الشّعفي Passionate Fear

(الخوف الشامل المجتمعي – الخوف النيكروفيبي السلطوي: ١٩٧٩-٢٠٢١)

في قاعة الخلد (٢٢ – ٧ – ١٩٧٩)، اجتمع الزعيم الأوحد، صدام حسين (١٩٣٧-٢٠٠٦)، بقيادات حزبه الأوحد، لتصفية بعض أبرزهم، في سياقٍ درامي مُرعب، انتهى بإعدامهم على يد رفاقهم، ضمن احتفاءٍ جماعي هوسي بالقتل، والتلذذ به، فدخل المجتمع العراقي مرحلة جديدة من الخوف، هو الخوف الشامل، إذ بدأت "جمهورية الخوف"^{٤٠}، و"دولة تحكم بلا قانون". ليجد العراقيون أنفسهم – بعد سنة واحدة من وصول صدام حسين إلى الرئاسة – يدخلون في أطول وأقسى حروب القرن العشرين، التي أطاحت بكل مكتسيات الحقب السابقة^{٤١}، لتعقبها بعد أقل من ثلاث سنوات حرب هائلة كارثية أخرى^{٤٢}، يلها الحصار الاقتصادي القاتل^{٤٣}، فمن الصراعات الجزئية انتقل العراق إلى الحروب المدمرة، ومن

^{٣٩} يُنظر: سلام جبار شهاب، الدولة الربعية وصياغة النظم الاقليمية، مجلة العلوم السياسية، العدد ٢١، ٢٠١٢، ص ١٣٧-١٦٦، كاظم علي مهدي، أثر الدولة الربعية على الخيار الديمقراطي في العراق، مجلة العلوم السياسية، العدد ٥٠، ٢٠١٥، ص ٤٥-٨٣، أعياذ عبدال وعدنان الشيباني، الاقتصاد الريعي وأثره في بناء دولة العراق وقوته، مجلة المستنصرية للدراسات العربية والدولية، العدد ٥٦، ٢٠١٧، ص ٢٦٩-٣١١.

^{٤٠} يُنظر: كنعان مكّيّة، جمهورية الخوف (بغداد، منشورات الجمل، ٢٠٠٩)، ولعلّه من أهم ما كُتب عن المرحلة الصداميّة، كما كان له تأثيرات واسعة، وفي ملاحظة بارعة فيه قال: "لقد اخترت أن أنظر إلى البعث من خلال عنفه، لأنني أعتقد أن هذه هي المسألة المحورية لهذا البلد التعيس" (ص ٤٣).

^{٤١} كانت هذه الحرب أعظم كارثة – وفاتحة الكوارث - العراقية، قُتل وأُسرو وجرح وشُرد فيها الآلاف، وتدمرت البنية الاقتصادية العراقية، دخل العراق ولديه قرابة (٣٥) مليار دولار من الاحتياطات الخارجية، وخرج بـ (١٠٠) مليار دولار من الديون. يُنظر: نزار الخزرجي، الحرب العراقية الإيرانية ١٩٨٠-١٩٨٨ (قطر، المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، ٢٠١٤)، عبد الوهاب القصاب، الحرب العراقية الإيرانية ١٩٨٠-١٩٨٨ (قطر، المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، ٢٠١٤)، عزييد داويشة، مصدر سابق، ص ٢٤٥-٢٤٦، كمال ديب، مصدر سابق، ص ١٦٤-١٩١.

^{٤٢} كانت هذه الحرب من أكبر الهزائم العسكرية في تاريخ الحروب الحديثة، دمرت الجيش العراقي بطريقة مُدّلة، كما دمرت البنية التحتية العراقيّة. يُنظر: محمد حسنين هيكل، حرب الخليج: أوهام القوة والنصر (القاهرة، مركز الأهرام، ١٩٩٢)، بيار سالينجر وأريك لوران، حرب الخليج: الملف السري (بيروت، شركة المطبوعات، ١٩٩٣)، عزييد داويشة، مصدر سابق، ص ٢٤٦-٢٤٨، كمال ديب، مصدر سابق، ص ١٩٥-٢٢٢.

^{٤٣} عقب أيام من دخول القوات العراقية للكويت، صدر قرار الأمم المتحدة (٦٦١)، بتاريخ (٦/٨/١٩٩٠)، بفرض عقوبات اقتصادية شديدة على العراق لإجبار قيادته على الانسحاب الفوري من الكويت، ولما لم يلتزم النظام العراقي بذلك، استمر (١٣) عاماً، فكانت له نتائج إنسانية واقتصادية وسياسية كارثية على العراق الذي عانى شعبه حرماناً قاسياً من الغذاء والدواء، إذ توفي – مثلاً – (١,٥٠٠,٠٠٠) طفل نتيجة

التصفيات الجزئية إلى الإبادات والتصفيات الجماعية^{٤٤}، ومن الاستغلالية الاقتصادية والريعية إلى الحصار الاقتصادي الدولي، ومن التوظيف المحدود للهويات والذاكرات، إلى التلاعب الشامل بالهويات والذاكرات^{٤٥}. لم تكن السلطة تسلطية أو تدميرية، بل كانت نيكروفيلية^{٤٦}، لا تسعى للسيطرة على الآخر، ولا إلغائه وإفناؤه، بل التلذذ بتعذيبه، وصار "الشهداء أكرم منا جميعاً" و"القلم والبندقية فوهة واحدة"، وقال الشاعر البعثي شفيق الكمالي - تحت هاجس الخوف من رفيقه - : "تبارك وجهك القدسي فينا، كوجه الله ينضح بالجلال"، فاكتملت دائرة الألوهة، وسقوط الألوهة، وبلغ المجتمع قمة الخوف، والدولة كذلك، وعندما تبلغ الدولة ذلك تتفكك، وتبقى مرتبطة - بخيطٍ واحدٍ - بالذات المتألهة، وشبح الخوف الفعلي والمُتخيل، وتصبح النيكروفيلية بنية مأسسة. إذ استعادت الحُقة الصدامية - وراكت - كل أنماط الخوف ولحظاته السابقة، لتبلغ به حدوده القصوى: الشغف بالموت، فحكمت بالموت، وعمّته، ومأسسته، وزيّنته، في مختلف المجالات، في الفن والأدب والتاريخ والاجتماع والسياسة والاقتصاد، حتى أطبق على المجتمع كله، عمّ الشوارع والمحافل العامة، ودخل البيوت وغرف النوم، بل بين الفرد ونفسه، واستقطب كل الانقسامات الهوياتية والذاكراتية، وعذابات الناس لم تعد غير مهمة فحسب، بل صارت ضرورة لبقاء النظام ومُتغته^{٤٧}.

أسقط النظام باحتلال أمريكي، احتلال نيكروفيلي اعتمد إستراتيجية "التدمير المُتعمد للعراق"^{٤٨}، حل - بما له دلالة مهمة - الجيش العراقي ووزارة الثقافة، وشرع بتأسيس نظامٍ يقود إلى استكمال التفتيت الصدامي للبنية الدولية

الجوع ونقص الدواء، وهاجرت قرابة (٢٣٠٠٠) كفاءة عراقية إلى الخارج، وانهارت القدرة الشرائية للمواطنين، ودُمرت الطبقة الوسطى بالكامل، كما عزل العراق سياسياً واقتصادياً وثقافياً عن مختلف بلدان العالم. يُنظر: كمال ديب، مصدر سابق، ص ٢٤٨-٢٨٤.

^{٤٤} افتتح صدام عصر الإبادات الجماعية الممنهجة في العراق، بالأنفال (١٩٨٦-١٩٨٩) وحليجة (١٩٨٨). ثم المقابر الجماعية (١٩٩١)، في (٢٠٠٣/٥/١٦) تم اكتشاف أول مقبرة جماعية في قضاء المحاول في محافظة بابل. وبعد ذلك بدأت مقابر جماعية أخرى بالظهور في كل محافظات العراق، لتصل المكتشفة منها قرابة (٣٤٦)، تضم رفات قرابة (٤٠٠٠٠٠) إنسان عراقي، إلا أن تاريخها الدقيق غير محدد، إذ يرجعها البعض إلى بدايات تسلّم حزب البعث للسلطة (١٩٦٨)، ولكن المؤكد أنها تتمركز حول عمليات الأنفال وضرب الانتفاضة الشعبانية والمعارضة السياسية لنظام صدام حسين في الثمانينات والتسعينات. يُنظر: انتظار رشيد زوير، "معالجة جرائم الإبادة الجماعية العالمية: العراق إنموذجاً"، مجلة كلية التربية، العدد ٣١ (٢٠١٨) ص ٧١١-٧٢٨.

^{٤٥} يُنظر: سون هوغبول، ثقافة الذاكرة وسياستها في الشرق الأوسط العربي، ترجمة: منير السعيداني، إضافات: المجلة العربية لعلم الاجتماع، العدد ٥ (٢٠١١)، ص ٧٨-٩٦، إريك دافيس، مذكرات دولة: السياسة والتاريخ والهوية الجماعية في العراق الحديث. ترجمة: حاتم عبد الهادي (بيروت، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ٢٠٠٨). في كتابه هذا يقدم دافيس انموذجاً لاستعمالات التاريخ بهدف الهيمنة، ويقول: "ما من دولة عربية نفطية أخرى خصصت من مواردها النفطية بقدر ما خصصه هذا البلد لهذه العملية، بذل الجهود لتخصيص تصور بعينه للماضي والإنتاج الثقافي ... فكان العراق المثال الأكثر أهمية لظاهرة كيفية استخدام الذاكرة التاريخية لبناء الدولة" (ص ٧-٨).

^{٤٦} يميز فروم بين التسلطية والتدميرية Destructiveness والنيكروفيلية Necrophilism، فالأولى رغبة بالسيطرة على الآخر، مما يستدعي بقاءه، والثانية رغبة بإفناؤه، أما الثالثة فهي التلذذ بموته، عشق للموت وشغف به. يُنظر: إريك فروم، تشرح التدميرية البشرية، ترجمة محمود منقذ الهاشمي (دمشق، منشورات وزارة الثقافة، ٢٠٠٦). يعرف فروم الطبع النيكروفيلي بالقول: "الانجذاب العاطفي إلى كل ما هو ميت ومتفسخ ومتعفن وسقيم، إنه الشغف بتحويل ما هو حي إلى شيء غير حي، وبالتدمير من أجل التدمير، والاهتمام الحصري بما هو ميكانيكي خالص، والشغف بتفكيك كل البنى الحية" (ج ٢، ص ٩٦).

^{٤٧} أفضل تصوير لذلك نجده في: زهير الجزائري، المستبد: صناعة قائد صناعة شعب (بيروت، معهد الدراسات الاستراتيجية، ٢٠٠٦).

^{٤٨} يُنظر: ريموند بيكر وطارق إسماعيل وشيرين إسماعيل، التطهير الثقافي: التدمير المُتعمد للعراق، ترجمة محمد صفار (مصر، مكتبة الشروق الدولية، ٢٠١٠)، ذكر هذا الكتاب المهم إن: "تدمير الدولة في العراق تضمن أكثر من مجرد تغيير النظام الحاكم، وأكثر من مجرد

العراقية، من خلال الإتيان بشخصيات تمثل - كمجموعة - ظلالاً لتلك الذات المتألّهة. بلا عناصر تألمية^{٤٩}، فتنخرطُ في عملية غير مسبوقة في تاريخ العراق من الإجهازِ على الدولة، حيث تُدسّر الانقسامات الهوياتية المتصارعة، وتُشرعن الذكارات التقاطعية، وتفتت المؤسسات، ويتغلغل الفساد، بكل مستوياته وتجلياته، في تلك المؤسسات، وتنبعث الاقطاعات الحديثة، والتسلطيات الحديثة. فتنتقل الخطابات الطائفية، والصراعات الطائفية الدامية (٢٠٠٦-٢٠٠٧)، والاحتلالات والإبادات الداعشية (٢٠١٤-٢٠١٧)، والجماعات المسلّحة المتكاثرة المهيمنة، والتبعيات للقوى الاقتصادية والسياسية الداخلية والخارجية اللاوطنية، والاستنزاف الكامل للثروات، والنهب المُطلق، الذي أدى إلى انهيار الاقتصاد العراقي، كل ذلك والمواطن يعيش التدهور المريع لحياته، في عمله وحاجاته الأساسية، وأمنه سلامته الشخصية. لتكون في هذه اللحظة جدلية الخوف - إضافةً إلى ما سبق - هي القتل - التلذذ، وهدف السلطة التهام الدولة، وبسبب طبيعة الخوف انتقلت من الدولة الضارية إلى اللادولة.

الخاتمة

في ملاحظة ثاقبة، أكّد الفيلسوف السياسي الفرنسي مونتسكيو (1689-1755) Montesquieu - قبل قرابة قرون ثلاثة - في كتابه "روح الشرائع" (The Spirit of Law (1748)، إنّ "الخوف" هو جوهر النظم التسلطية^{٥٠}. فكل تشريعات ومؤسسات وممارسات وعلاقات الدولة التسلطية مسوقةٌ بذلك العنصر الناظم، مما يجعل من دراسة دينامياته النفسية الاجتماعية، في تأسيساته وتحولاته، شرطاً أساساً لفهم بنية تلك الدولة، وهو ما "حاولت" الدراسة الحالية القيام به، فتنبّعت تحولاته ضمن ثلاثة أنماط متصاعدة: الوظيفي والغائي والشعفي، الاقتصادي والسياسي والشامل. كل تحول حدث بتفاعل بين المجتمع والدولة، بوساطة الحكومة المنبثقة من التوجّهات الاستغلالية، لتهيمن في سياق من التوجّهات التلقفية والشخصية التسلطية، وتحتمي وتشتغل بصدامات الهويات الاجتماعية، وبناء سرديات تقاطعية. الحكومات التسلطية - بالدرجات المتفاوتة - خائفة، وقد نجحت - إلى حد كبير - في تعميق توجّه الخوف الجمعي المجتمعي، إلا إنّ ذلك قاد إلى نتائج عكسية، لاسيما في بلد بتنوعات اجتماعية كبيرة، وتراث حضاري متراكم، ونزعات يسارية اجتماعية، فمراكمة الخوف بصورة متطرفة تزيد حدة الوعي بمسبباته، والقطيعة مع القوى المؤسسة والمدمية له، وتبلور ديناميات مقاومته، لاسيما مع وجود فاعلية - وإن كانت محدودة - للتوجّهات الانتاجية والثقافة المساواتية

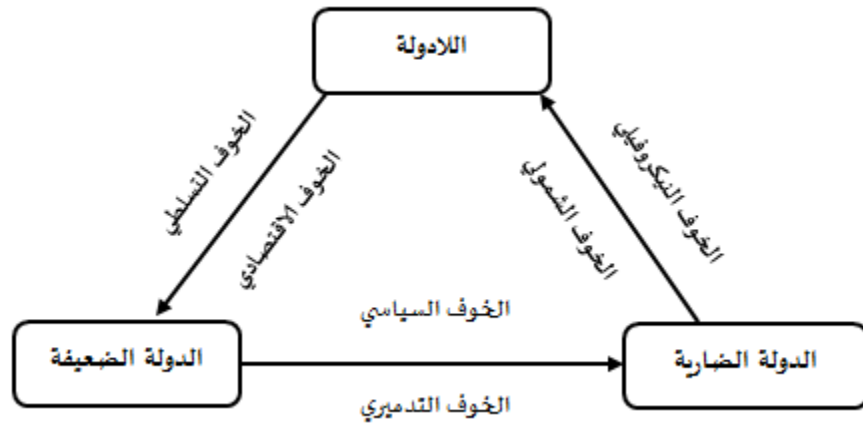
إعادة الهيكلة السياسية والاقتصادية، بل تطلب أيضاً التطهير الثقافي ... وقد تم إنجاز الجزء الأكبر من التطهير الثقافي بواسطة الامتناع عن الفعل، حيث عزز المحتلون مناخاً من غياب القانون وأضفوا الشرعية عليه، بكل ما يتصل بذلك من تداعيات قابلة للتنبؤ بها بالكامل ... وبدأ التطهير الثقافي في الأيام المبكرة للغزو، مع النهب الواسع لكل رموز الهوية التاريخية والثقافية العراقية، إذ كانت المتاحف والمواقع الأثرية والقصور والمباني التذكارية والمساجد والمكتبات والمراكز الاجتماعية عرضة للنهب والتدمير تحت المراقبة اليقظة للاحتلال ... فكان لهذا التدمير الثقافي الهائل أثر تخريبي على مستويين متميزين: (١) يتعلق بالإنسانية جمعاء، بسبب الأصل المتفرد للأثار والمباني التذكارية للعراق، التي تسجل بشكل مادي جيد التوثيق الإحساس - منقطع النظير - باستمرارية الحضارات الإنسانية في هذا الموقع الفريد، و(٢) يرتبط - بشكل حاسم - بشعب العراق وهويته التاريخية المتميزة، التي تشكلت بالطريقة التي يفهم بها العراقيون تاريخهم" (ص ٤٤، ٤٥، ٤٦، ٤٧، ٤٨).

^{٤٩} يُنظر: بول بريمر، عام قضيته في العراق، ترجمة عمر الأيوبي (بيروت، دار الكتاب العربي، ٢٠٠٦)، يصف بريمر من جاء بهم للسلطة بالقول: "يريدون تثبيت أنفسهم بمثابة حكومة بسرعة قبل أن يتقلص تأثيرهم في لندن وواشنطن وطهران والرياض، ما لم تتأت لهم السلطة السياسية على الأرض في العراق" (ص ٦١).

^{٥٠} مونتسكيو، روح الشرائع، ترجمة عادل زعيتر (القاهرة، مؤسسة هنداوي، ٢٠١٧)، ص ٨٥.

والهوية الوطنية والذاكرة الإنسانيّة^{٥١}. وقد اختزل إريك دافيس هذه المفارقة بقوله: "المأساة الكبرى لعراق ما بعد (٢٠٠٣) قائمة في التناقض بين التزام أعداد كبيرة من العراقيين بالديمقراطية والتسامح الطائفي في وجه قيادة سياسية تواصل السماح بانتشار الطائفية والفساد والتحريض على العنف السياسي، بل وتعززه بشكل كبير"^{٥٢}.

مثل العراق - بتاريخ دولته الحديثة - المثال الدقيق لتشكيلات وتحولات الدولة التسلطيّة، والأساس النفسي الاجتماعي لبنية تلك الدولة: بنية الخوف، السياقي والطريقي، في المجتمع والحكومة، التي هي بنية تفاعلية بين البنية الاقتصادية الاجتماعية من جهة، والتوجّهات الطبيعيّة والشخصيّة التسلطيّة والهوية الاجتماعية والذاكرة التاريخية من جهة ثانية، بدرجة يمكن عدّه تاريخ الخوف وتحولاته، كما يقدم إضافة نظريّة مهمّة تتمثل بديناميّات الخوف الذي يأكل ذاته (الشكل ٣)، فالخوف، بتراكماته وانزياحاته، وإغفال تجلّياته ومركزياته، يقود إلى فناء الدولة، كمضمون اجتماعي، وإطار سياسي، وهو ما لم يكن يُدرّكه قاداته نتيجة المخاوف التسلطية. ولكن الوصول إلى ذلك تطلّب عذاباً اجتماعيّة هائلة، وتفتيت لبنة الدولة، كما كشف عن عمق اغتراب الذات السياسيّة العراقيّة، ولذلك انبثقت الاحتجاجات العراقيّة التشريعية (٢٠١٩) بشعاري: "نريد وطن، الخائفون لا يصنعون الحرّة!"



الشكل (٣) دولة الخوف: من التسلطية إلى النيكروفيلية

^{٥١} للاستزادة حول هذه الثيمات، يُنظر: لؤي خزعل جبر، الهوية الوطنية العراقية: دراسة ميدانيّة، (بغداد، المركز العراقي، ٢٠٠٨)، لؤي خزعل جبر، الذاكرة التاريخية والثقافة السياسيّة: دراسة نفسيّة في ديناميّات العجز المتعلم في المجتمع العراقي (جامعة الكوفة، دراسات فكرية، ٢٠١٨)، فارس كمال نظمي، الحرمان النسبي والهوية الاجتماعية وعلاقتها بسلوك الاحتجاج لدى العاطلين عن العمل (أطروحة دكتوراه، جامعة بغداد، ٢٠٠٩).

Eric Davis, "The New Iraq : The Uses of Historical Memory", *Journal of Democracy*, V.16, 2005, pp.54-68; Eric Davis, "Sectarianism, Historical Memory and The Discourse of Othering : The Mahdi Army, Mafia, Camorra and Ndrangheta", In C. Toensing & M. Kirk , eds., *Uncovering Iraq: Trajectories of Disintegration and Transformation* (Washington, The Center for Contemporary Arab Studies, 2010), pp.67-113; Ronald Inglehart et.al., "Xenophobia and Ingroup Solidarity in Iraq: A Natural Experiment on The Impact of Insecurity", *Perspectives on Politics*, V.4, 2006, pp.495-505.

^{٥٢} إريك دافيس، مصدر سابق، ص ٢٨-٢٩.

المراجع

- ابراهيم، حسنين توفيق. ظاهرة العنف في النظم العربية. بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، ١٩٩٩.
- الأيوبي، نزيه. تضخيم الدولة العربية: السياسة والمجتمع في الشرق الأوسط. ترجمة أمجد حسين. بيروت: المنظمة العربية للترجمة، ٢٠١٠.
- بادي، بتران. الدولة المستوردة: تغريب النظام السياسي. ترجمة لطيف فرج. القاهرة: مدارات، ٢٠١٧.
- باقر، طه. مقدمة في تاريخ الحضارات القديمة. بيروت: دار الوراق، ٢٠٠٩.
- برو، فيليب. علم الاجتماع السياسي. ترجمة محمد عرب صاصيلا. بيروت: المؤسسة الجامعية، ١٩٩٨.
- بريمر، بول. عام قضيته في العراق. ترجمة عمر الأيوبي. بيروت: دار الكتاب العربي، ٢٠٠٦.
- بطاطو، حنا. العراق: الطبقات الاجتماعية والحركات الثورية من العهد العثماني حتى قيام الجمهورية. ترجمة عفيف الرزاز. بيروت: مؤسسة الأبحاث العربية، ١٩٩٥.
- _____ . العراق: الحزب الشيوعي. ترجمة عفيف الرزاز. بيروت: مؤسسة الأبحاث العربية، ١٩٩٥.
- _____ . العراق: الشيوعيون والبعثيون والضباط الأحرار. ترجمة عفيف الرزاز. بيروت: مؤسسة الأبحاث العربية، ١٩٩٥.
- _____ . الشيخ والفلاح في العراق. ترجمة صادق عبد علي. بغداد: سطور، ٢٠١٨.
- بورديو، بيار. عن الدولة. ترجمة نصير مروة. بيروت: المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، ٢٠١٦.
- بولانتزاس، نيكولاس. نظرية الدولة. ترجمة ميشيل كيلو. بيروت: التنوير، ٢٠١٠.
- بولك، وليام. لكي نفهم العراق. ترجمة عبد الحي يحيى زلوم. بيروت: المؤسسة العربية، ٢٠٠٦.
- بيكر، ريموند وإسماعيل، طارق وإسماعيل، شيرين. التطهير الثقافي: التدمير المتعمد للعراق. ترجمة محمد صفار. مصر: مكتبة الشروق الدولية، ٢٠١٠.
- تبلي، تشارلز. الديمقراطية. ترجمة محمد فاضل طباح. بيروت: المنظمة العربية للترجمة، ٢٠١٠.
- جير، لؤي خزعل. الهوية الوطنية العراقية: دراسة ميدانية. بغداد: المركز العراقي، ٢٠٠٨.
- _____ . الذاكرة التاريخية والثقافة السياسية: دراسة نفسية في ديناميات العجز المتعلم في المجتمع العراقي. جامعة الكوفة: دراسات فكرية، ٢٠١٨.
- الجزائري، زهير. المستبد: صناعة قائد صناعة شعب. بيروت: معهد الدراسات الاستراتيجية، ٢٠٠٦.
- حسن، محمد سلمان. دراسات في الاقتصاد العراقي. بيروت: دار الطليعة، ١٩٦٦.
- الحسني، عبد الرزاق. تاريخ العراق السياسي الحديث. بيروت: الرافدين للطباعة، ٢٠٠٨.
- حمزة، كريم. "تاريخ الاستخدام السياسي للهوية المحلية العشائرية في العراق: تخدام الدولة والمشخة". عمران. العدد ١٩ (٢٠١٧)، ص ٨٩-١١٨.
- الجزري، نزار. الحرب العراقية الإيرانية ١٩٨٠-١٩٨٨. قطر: المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، ٢٠١٤.
- الخيون، رشيد. الأديان والمذاهب بالعراق. الرياض: مركز المسبار للدراسات والأبحاث، ٢٠١٦.
- دافيس، إريك. مذكرات دولة: السياسة والتاريخ والهوية الجماعية في العراق الحديث. ترجمة حاتم عبد الهادي. بيروت: المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ٢٠٠٨.
- دال، روبرت. عن الديمقراطية. ترجمة أحمد أمين الجمل. القاهرة: الجمعية المصرية لنشر المعرفة والثقافة العالمية، ٢٠٠٠.
- درايزك، جون ودلفي، باتريك. نظريات الدولة الديمقراطية. ترجمة هاشم أحمد محمد. القاهرة: المركز القومي للترجمة، ٢٠١٣.

ديب، كمال. موجز تاريخ العراق: من ثورة العشرين إلى الحروب الأمريكية والمقاومة والتحرير وقيام الجمهورية الثانية. بيروت: دار الفارابي، ٢٠١٣.

الركابي، عبد الزهرة. "العشيرة في العراق ودورها السياسي". حوار العرب. العدد ١٩ (٢٠٠٦)، ص ٤٠-٤٧.
زوير، انتظار رشيد. "معالجة جرائم الإبادة الجماعية العالمية: العراق إنموذجاً". مجلة كلية التربية، العدد ٣١ (٢٠١٨)، ص ٧١١-٧٢٨.
سالينجر، بيار ولوران، أريك. حرب الخليج: الملف السري. بيروت، شركة المطبوعات، ١٩٩٣.
شهاب، سلام جبار. "الدولة الربيعية وصياغة النظم الاقليمية". مجلة العلوم السياسية، العدد ٢١ (٢٠١٢)، ص ١٣٧-١٦٦.
عبد الحميد، محسن. الأخوان المسلمون في العراق: ١٩٤٤-٢٠٠٣، ٢٠١٢.
عبدال، أعياد والشيباني، عدنان. "الاقتصاد الريعي وأثره في بناء دولة العراق وقوته". مجلة المستنصرية للدراسات العربية والدولية. العدد ٥٦ (٢٠١٧)، ص ٢٦٩-٣١١.

العروي، عبد الله. مفهوم الدولة. بيروت: المركز الثقافي العربي، ٢٠١١.
العييسي، شبلي. حزب البعث العربي الاشتراكي: مرحلة النمو والتوسع ١٩٤٩-١٩٥٨. بغداد: دار الشؤون الثقافية، ١٩٨٧.
داويشة، عضيد. العراق: تاريخ سياسي من الاستقلال إلى الاحتلال. ترجمة سامر طالب. بيروت: مركز الرافدين، ٢٠١٩.
فروم، إريك. الخوف من الحرية. ترجمة مجاهد عبد المنعم مجاهد. بيروت: المؤسسة العربية للدراسات، ١٩٧٢.
_____ . الإنسان بين المظهر والجوهر. ترجمة سعد زهران. الكويت: عالم المعرفة، ١٩٨٩.
_____ . ما وراء الأوهام. ترجمة صلاح حاتم. اللاذقية: دار الحوار، ١٩٩٤.

_____ . تشرح التدميرية البشرية. ترجمة محمود منقذ الهاشمي. دمشق: منشورات وزارة الثقافة، ٢٠٠٦.
_____ . الإنسان من أجل ذاته. ترجمة محمود منقذ الهاشمي. دمشق: منشورات وزارة الثقافة، ٢٠٠٧.
_____ . المجتمع السوي. ترجمة محمود منقذ الهاشمي. دمشق: منشورات الهيئة العامة السورية، ٢٠٠٩.

القصاب، عبد الوهاب. الحرب العراقية الإيرانية ١٩٨٠-١٩٨٨. قطر: المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، ٢٠١٤.
كجه جي، صباح. التخطيط الصناعي في العراق: أساليبه وتطبيقاته وأجهزته ١٩٢١-١٩٨٠. بغداد: بيت الحكمة، ٢٠٠٢.
اللجنة الوطنية للسياسات السكانية، حالة سكان العراق ٢٠١٠. العراق: صندوق الأمم المتحدة للسكان، ٢٠١١.
اللجنة الوطنية للسياسات السكانية، تحليل الوضع السكاني العراق ٢٠١٢. العراق: صندوق الأمم المتحدة للسكان، ٢٠١٢.
لوكيتز، ليورا. العراق والبحث عن الهوية الوطنية. ترجمة دلشاد ميران. أربيل: دار تاراس للطباعة والنشر، ٢٠٠٤.
لونكريك، ستيفن. أربعة قرون من تاريخ العراق الحديث. ترجمة جعفر الخياط. مكتبة اليقظة العربية، ١٩٨٥.

ماكيفر، روبرت. تكوين الدولة. ترجمة حسن صعب. بيروت: دار العلم للملايين، ١٩٨٤.
مجموعة من الباحثين. العراق في التاريخ. بغداد: دار الحرية للطباعة والنشر، ١٩٨٣.
مجموعة من الباحثين. حضارة العراق. بغداد: دار الحرية للطباعة، ١٩٨٥.

المرشدي، حسين علي. السياسة النفطية لحكومة عبد الكريم قاسم ١٩٥٨-١٩٦٣. رسالة ماجستير، جامعة المثنى، ٢٠١٦.
مكية، كنعان. القسوة والصمت: الحرب والطغيان والانتفاضة في العالم العربي. بغداد: منشورات الجمل، ٢٠٠٥.
_____ . جمهورية الخوف. بغداد: منشورات الجمل، ٢٠٠٩.

مهدي، كاظم علي. "أثر الدولة الربيعية على الخيار الديمقراطي في العراق". مجلة العلوم السياسية. العدد ٥٠ (٢٠١٥)، ص ٤٥-٨٣.
المؤمن، علي. سنوات الجمر: مسيرة الحركة الإسلامية في العراق: ١٩٥٧-١٩٨٦. مركز دراسات المشرق العربي، ٢٠٢٠.
مونتسكيو. روح الشرائع. ترجمة عادل زعيتر. القاهرة: مؤسسة هنداوي، ٢٠١٧.

نظمي، فارس كمال. الحرمان النسبي والهوية الاجتماعية وعلاقتها بسلوك الاحتجاج لدى العاطلين عن العمل، أطروحة دكتوراه، جامعة بغداد، ٢٠٠٩.

النقيب، خلدون حسن. الدولة التسلطية في المشرق العربي المعاصر: دراسة بنائية مقارنة. بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، ١٩٩٦.

هوبا، هانز هيرمان. الديمقراطية: الإله الذي فشل. ترجمة إيمان معروف. الكويت: منشورات تكوين، ٢٠١٩.
هوغبول، سون. "ثقافة الذاكرة وسياستها في المشرق الأوسط العربي". ترجمة منير السعيداني. إضافات: المجلة العربية لعلم الاجتماع. العدد ٥ (٢٠١١)، ص ٧٨-٩٦.

هيكل، محمد حسنين. حرب الخليج: أوهام القوة والنصر. القاهرة، مركز الأهرام، ١٩٩٢.
وتوت، علي. الدولة والمجتمع في العراق المعاصر. أطروحة دكتوراه، كلية الآداب، جامعة بغداد، ٢٠٠٤.
الوردي، علي. دراسة في طبيعة المجتمع العراقي. بغداد: مطبعة جامعة بغداد، ١٩٦٥.
_____ . لمحات اجتماعية من تاريخ العراق الحديث. بيروت: دار الراشد، ٢٠٠٥.

Adorno, Theodor. et. al. *Authoritarian Personality*. New York: Harper, 1950.

Almond, Gabriel & Verba, Sidney. *The Civic Culture : Political Attitudes and Democracy in Five Nations*. Boston: Little, Brown and Company, 1965.

Altemeyer, Bob. "The Other Authoritarian Personality". In Jost & Sidanius. eds. *Political Psychology*. New York; Psychological Press, 2004.

Anderson, Liam & Stansfield, Gareth. *The Future of Iraq: Dictatorship, Democracy or Division?* Palgrave Macmillan, 2004.

Crowson, H. M & Gries, P. H. "Do Right-Wing Authoritarian and Social Dominance Orientation predict Anti-China attitudes?". *Psicología Política*. N.40 (2010), pp.7-29.

Dann, U. *Iraq under Qassem: a political history, 1958-1963*. Praeger Publishers, 1969.

Davis, Eric. "The New Iraq : The Uses of Historical Memory". *Journal of Democracy*. V.16 (2005), pp.54-68.

_____ . "Sectarianism, Historical Memory and The Discourse of Othering : The Mahdi Army, Mafia, Camorra and Ndrangheta". In C. Toensing & M. Kirk. eds. *Uncovering Iraq: Trajectories of Disintegration and Transformation*. Washington: The Center for Contemporary Arab Studies, 2010, pp.67-113.

Dawisha, Adeed. *Iraq: A Political History*. Princeton: Princeton University Press, 2009.

Dodge, Topy. "State and Society in Iraq ten years after regime change: the rise of a new authoritarianism". *International Affairs*. V.89, (2013) 241–257.

Duckitt, John. "Authoritarian Personality". In Wright. eds. *International Encyclopedia of the Social & Behavioral Sciences*. Oxford: Elsevier, 2015.

Freedom House, *Freedom in The World 2016*, Available Online: www.freedomhouse.org.

Gallopín, Jean-Baptiste. *From Populism to Authoritarianism – The Trajectory of the Iraqi Regime under Abd al-Karem Qasim, 1958-1963*. 2009.

Halbwachs, Maurice . *On Collective Memory*. Translated by L. A. Coser. Chicago: University of Chicago Press, 1992.

Hasan, Hareth. *Beyond Security: Stabilization, Governance and Socioeconomic Challenges in Iraq*. Atlantic Council, 2018.

- Ho, Arnold, et. al. "Social Dominance Orientation: Revisiting the Structure and Function of a Variable Predicting Social and Political Attitudes". *Personality and Social Psychology Bulletin*, V.38 (2012), pp.583–606.
- Inglehart, Ronald. et.al. "Xenophobia and Ingroup Solidarity in Iraq: A Natural Experiment on The Impact of Insecurity". *Perspectives on Politics*. V.4 (2006), pp.495-505.
- Jarymowicz, Maria & Bar-Tal, Daniel. "The dominance of fear over hope in the life of individuals and collectives". *European Journal of Social Psychology*, V.36 (2006), pp.367–392.
- Levitsky, Steven & Way, Lucan. "Elections Without Democracy: The Rise of Competitive Authoritarianism". *Journal of Democracy*, V.13,(2002), pp.51-65.
- Linz, Juan J. "An Authoritarian Regime: The Case of Spain". in Erik Allardt and Yrjö Littunen, eds. *Cleavages, Ideologies, and Party Systems: Contributions to Comparative Political Sociology*. Helsinki: Transactions of the Westermarck Society, pp. 291-342;
- Melton, Jos D. "The Political Culture of State Authoritarianism". In: Stanly A. Renshon and John Duckitt, eds., *Political Psychology: Cultural and Cross-cultural Foundations*. New York: New York University Press, 2000. pp.108-127.
- Modler, Holger. "The Culture of Fear in International Politics: A Western Dominated International System and its Extremist Challenges". *ENDC Proceedings*, V.14 (2011), pp.241-263;
- Ottaway, Marina & Kaysi, Danial. *The State of Iraq*. The Carnegie Papers, 2017.
- Palu, Annegrete. *Culture of Fear: Fear as Context and as Method of Political Influence*. Thesis, University of Tartu, 2014.
- Pennebaker, Paez & Rime. eds. *Collective Memory of Political Events : Social Psychological Perspectives*. New Jersey: Lawrence Erlbaum Associates Publishers, 1997.
- Pratto, Felicia et. al. "Social Dominance Orientation: A personality variable predicting social and political attitudes". *Journal of Personality and Social Psychology*. V.67 (1994), pp.741-763
- Rokeach, Milton. "The Nature and Meaning of Dogmatism". *Psychological Review*. V.61 (1954), P.194-204.
- . *The Open and Closed Mind*. New York: Basic Books, Inc, 1960.
- Salmela, Mikko. "The Functions of Collective Emotions in Social Groups". In: A. Konzelmann Ziv and H.B. Schmid, eds. *Institutions, Emotions, and Group Agents. Studies in the Philosophy of Sociality*. Springer, 2014. pp.159-176.
- Saunders, Benjamin & Ngo, Josephine. "The Right-Wing Authoritarianism Scale". In Zeigler-Hill & Shackelford. eds. *Encyclopedia of Personality and Individual Differences*. Springer International Publishing, 2017.
- Scheve, Christian von & Ismer, Sven. "Towards a theory of collective emotions". *Emotion Review*, V. 5(2016), pp.406-413.
- Shorten, Richard. *Modernism and Totalitarianism: Rethinking the Intellectual Sources of Nazism and Stalinism, 1945 to the Present*. Palgrave Macmillan, 2012.
- Sorby, Karol. "The Political Climate un Iraq in The Aftermath of The 1958 Revolution". *Asian & African Studies*. V.14 (2005). Pp.167-186.
- Strnner, Karen. *Authoritarian Dynamic*. Cambridge: Cambridge University Press, 2005.

_____. "Three Kinds of Conservatism". *Psychological Inquiry*. V.20 (2009), pp.142–159.

_____ & Haidt, Jonathan. "Authoritarianism is not a momentary madness, but an eternal dynamic without liberal democracies". In Sunstein. eds. *Can it happen here? Authoritarianism in America*. New York: Harper Collins, 2018, pp.175-219.

Sullivan, Marisa. *Maliki's Authoritarian Regime*. The Institute for The Study of War: Middle East Security Report, 2013.

Tajfel, Henry & Turner, John. "The Social Identity Theory Of Inter Group Behaviour". In Jost & Sidanius. eds. *Political Psychology*. New York: Psychology Press, 2004, pp.276-293.

Teeger, Chana. "Collective Memory and Collective Fear: How South Africans Use the Past to Explain Crime". *Qual Sociol*, V.37 (2014), pp.69–92;

The Economist Intelligence Unit. *Democracy Index 2015: Democracy in an age of anxiety*, Available Online: www.eiu.com.

The Fund of Peace, *Failed States Index 2013*. Available Online: www.fragilestatesindex.org.

The Fund of Peace, *Fragile States Index 2014*. Available Online: www.fragilestatesindex.org.

The Fund of Peace, *Fragile States Index 2019*. Available Online: www.fragilestatesindex.org.